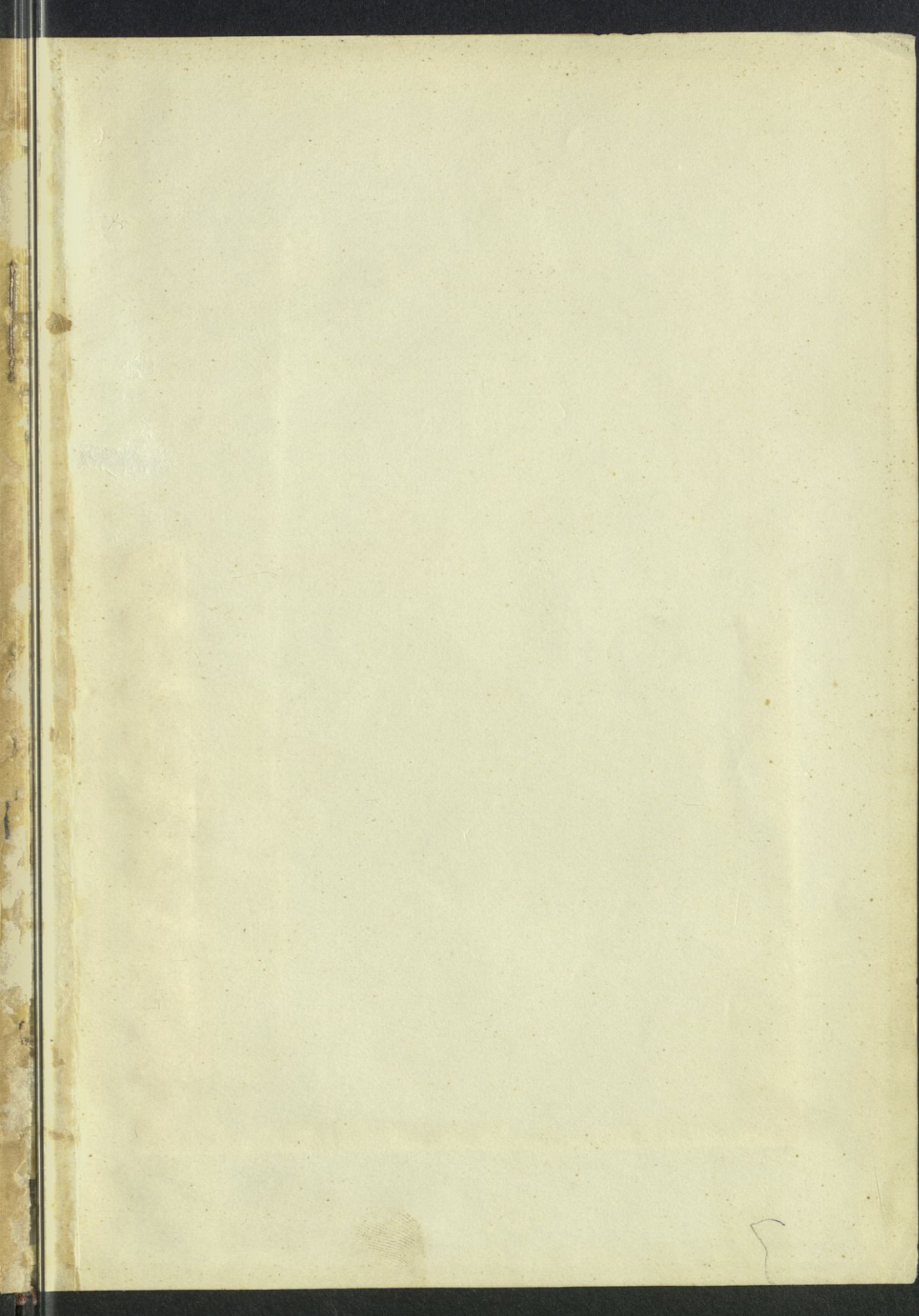


ابراهيم

سلسلہ مانع

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

قصيد
صالح النقر
بيروت - المزرعة



892.78
Sa 132 Ti A
C.1

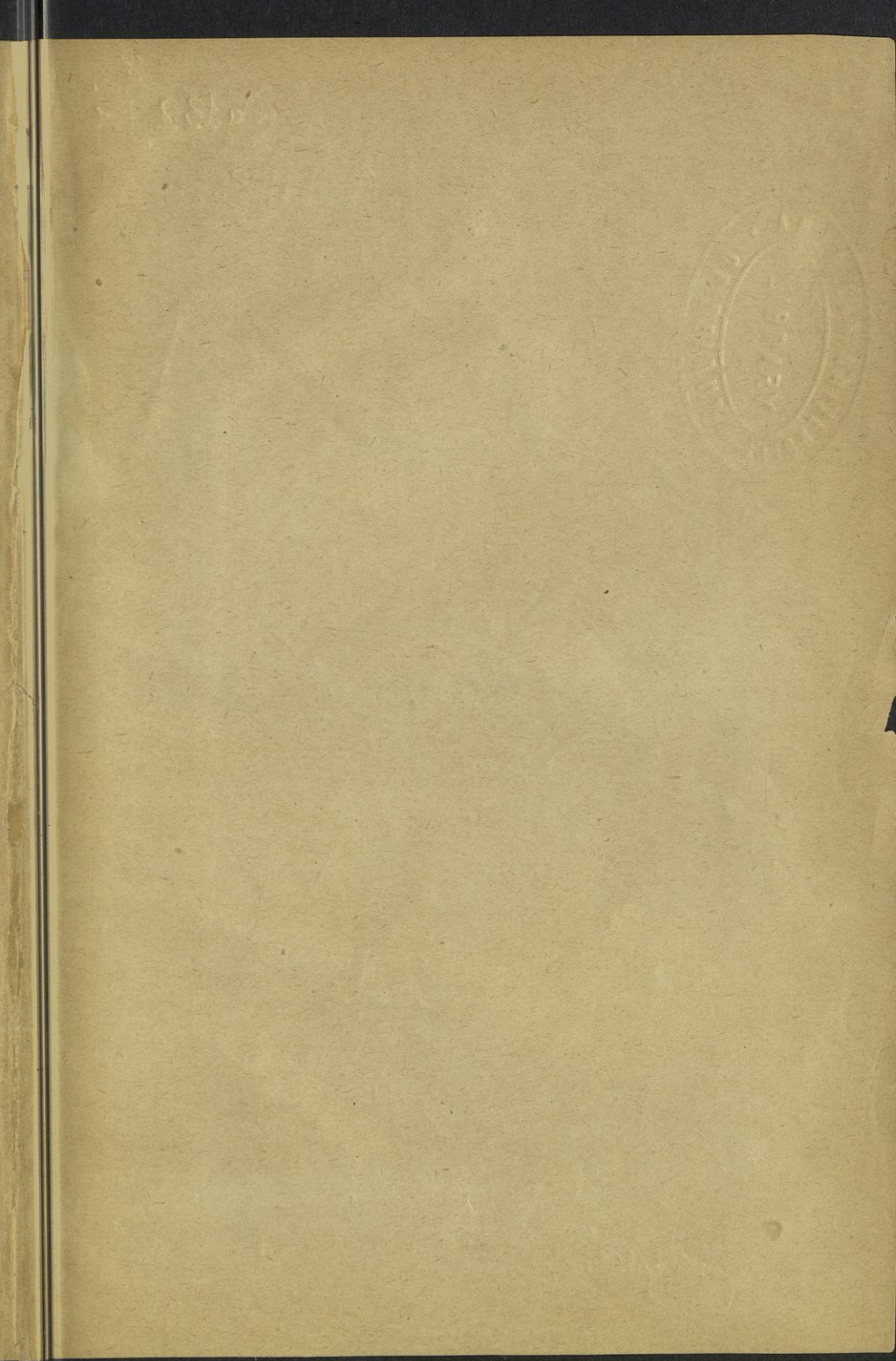
املى فارس ابراهيم

سَلَامٌ عَلَيْكَ

آهٔ من بآری

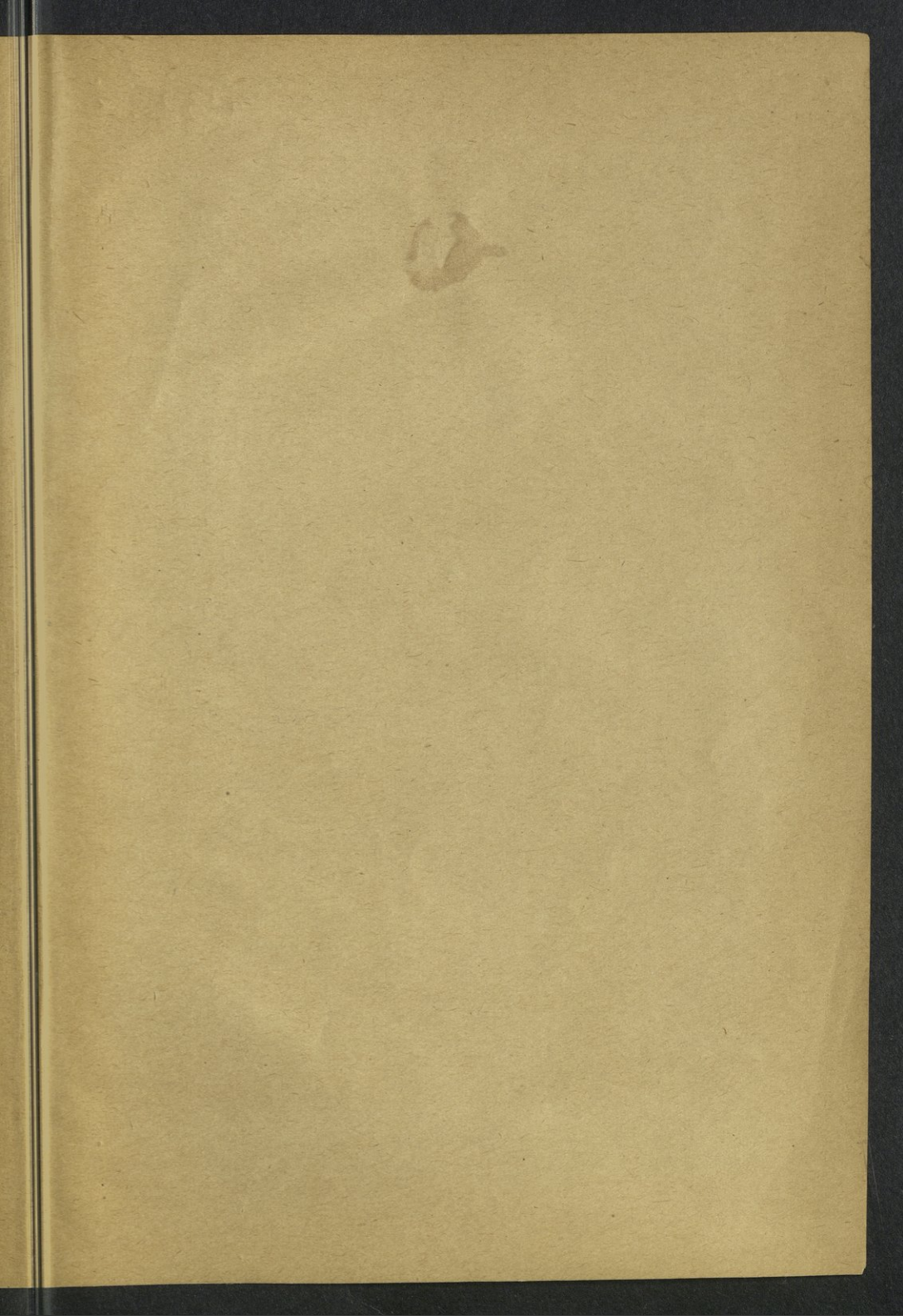
دار الجمال

منسوبات أهل القلم



الى الف

الم



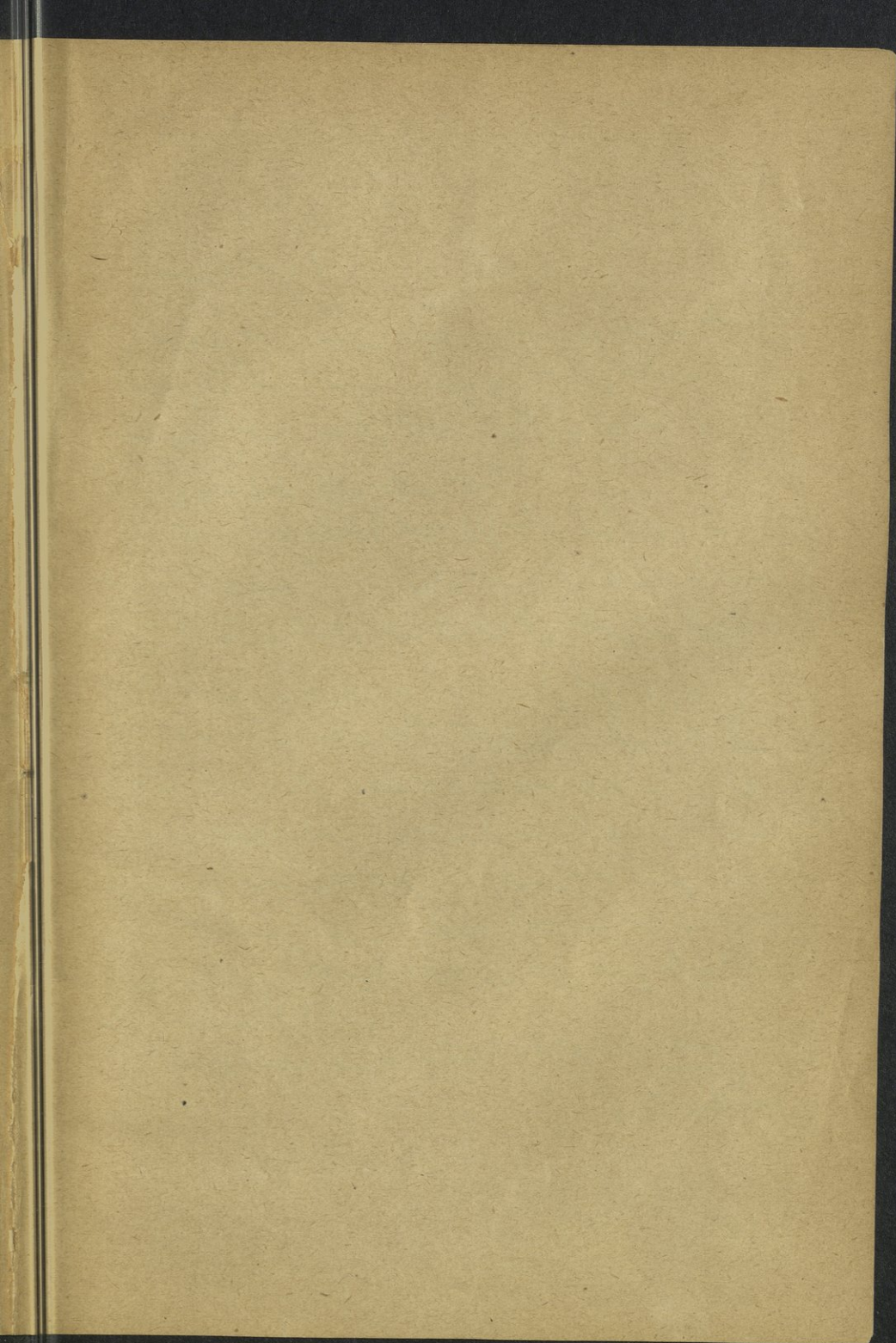
سيدتي العزيزة

سلام على روحك الطيبة . وبعد فقد تعينت شريين
كاملين عن صف المدينة وعدت ماء اوس فذهبت كتاب
النساء فسررت به كل السرور ثم قرأت من اوله الى اخره .

قرأت بين منصف الدين وصف الصالح
ليس بين شغف كلمة اقول في كتابك . غير انني
اجبت . اجبته كما تريهني ان اجبه . بس اجبت بوسيلة
ما ظن صانعا في قلبك بعد تدوين كل نفس من فصوله
ثم شعرت بشوق الى يهودي . ثم طمع النور .

انما الكتب بين ظاهر الشخصيات . ونحن نقرأ الكتب
يعرف واحدنا الآخر . ومن يقرأ كتابك يعرفك . ومن
يعرفك اليوم يشعر بانك احسن حالاً مما كان عليه ياوس .
من يعرفك يا سيدتي يشعر بانك احسن حالاً رغم انه
يراس في قلبه قائلاً " ابتعد يا اهل الدهشة في قلوب
الغرباء والمجندين والمتعدين " التائين ش يسوع الطرية الى
تراوية يسند البراءة " .

تضمني بقبل احلامي شغفاً باعجابي واسد بخظك
جهدك خفي



القاهرة ٦ سبتمبر ١٩٤٤

أنت ربيع يأسى

أنت ربيع بلادنا الملتون، المنهد، الشاف، الخصب،

في هذه النشحات رباح تهتث العصف . إلا أن

الربيع يتغلب علىك وغيره كما تحوش أهدت الأوجش

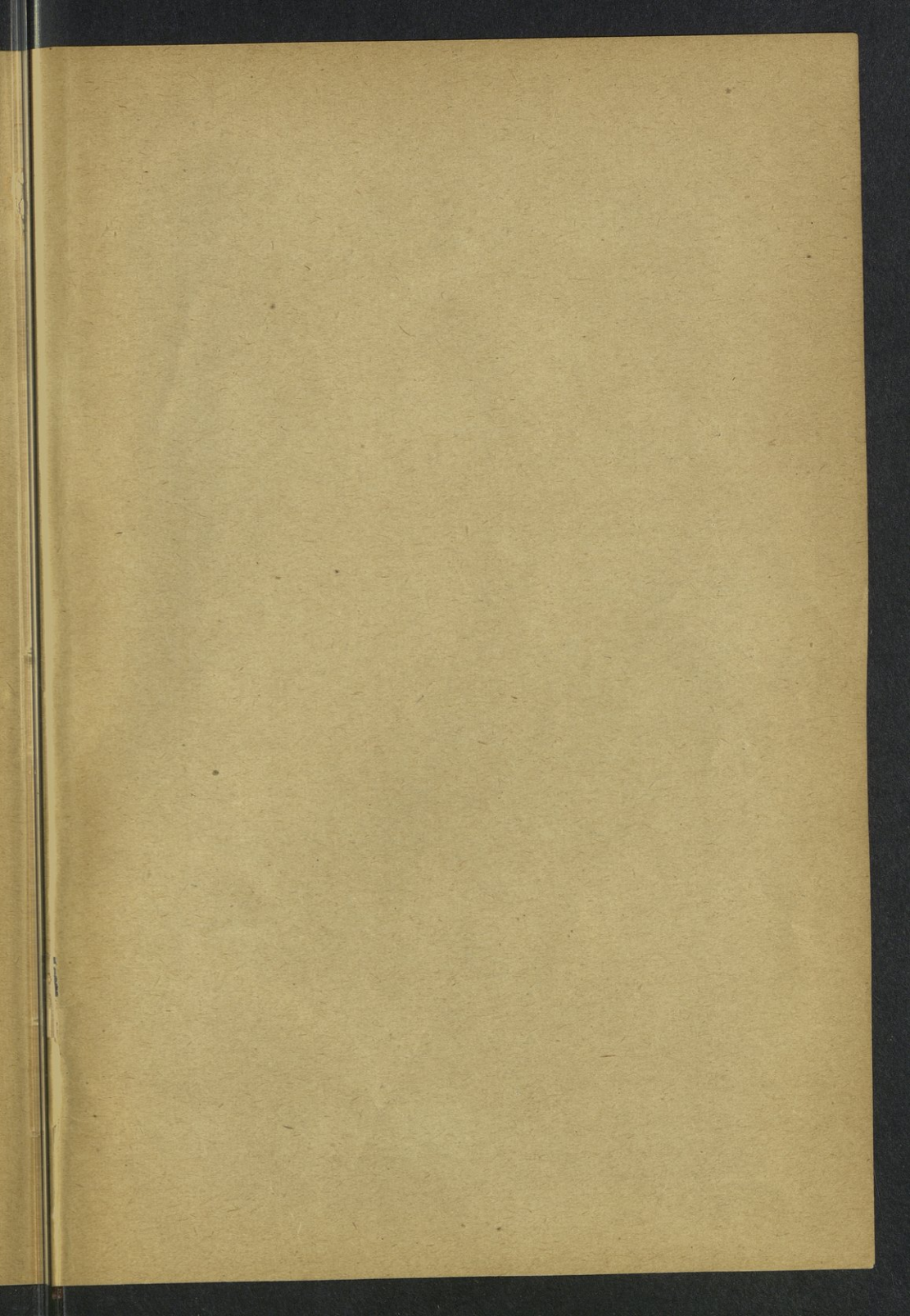
- أوجش العيد - كل هممة، وتعلم فوق كل زفير وكل

زفير
أنت ربيع . وفي سماء الربيع منك بخلق جناح، الومنة

أنت أم لبنانية صالحة في أفق ربيع لبناني جميل

إني أعجب بك وأعجب

(مبت)



- الو ! ... املي ؟ .. سلمى تحتضر ...
- من ؟ .. سلمى ؟ ..
- نعم ، نعم سلمى .. أجاب صوت الصديقة الين ريجان
- كيف ؟ واين ؟ ..
- في المستشفى الالماني
- في الاسبوع الماضي تركتها في فندق بيت مري وحالتها بتحسن .. ماذا
جد عليها ؟
- ...

فككت اصابعي عن السماعه وارخيتها على الآلة نائمة في تأملات بعيدة ،
اطوف على المدى المنفسح امام عيني في اجواء بعض المراحل التي عرفتها من الحياة
هذه الصديقة النجية ، في اجواء مرحلة السنوات الاخيرة من حياتها ، وقد كانت لي
جارة الحبي ، اطوف في تلك الاجواء غير قادرة على ان اصدق ان سلمى ، بنضارتها
الحلوة وعذوبة نظراتها وتلك المحاسن الكثيرة التي ظلت بفتوتها رغم السنين الستين ،
هي حقا في ساعاتها الاخيرة ...

كان قد مضى على سلمى اشهر ، عانت فيها مرضها ، امضت معظمها في مستشفى
الدكتور توفيق رزق الذي كان لها الصديق الصدوق قبل ان يكون الطبيب ،
وكانت حالتها تتأرجح بين السيء والحسن ، وما كان على اي حال شيء ينبيء
بهذه النهاية السريعة الاحتضار ...

لا ادري كم من اللحظات كانت قد مرت ساعة افقت من ذهولي واسرعت الى
المستشفى الالماني ...

- ايها غرفة سلمى صانع من فضلك ؟

- الغرفة ١٦ - افادتني راهبة كانت تمر في الرواق وهي احدى يمامات الرحمة المرفقة باجنحة المحبة على أسرة المعذبين .

دفعت الباب الذي تراقص عليه الرقمان ٦ و ١ فطالعتني هرمة متكومة فوق سرير ، لو لم ار بجانبها شقيقتها لخالتي اخطأت الغرفة . ولم تكن سوى لحظة وجوم وهزة رأس من الشقيقة وأنة خافثة من « الكومة » ، ووقع خطوات ثلاث اندفعت بها هربا الى الشرفة لاجس شهقة الالم وغصة التفجع ، وقد ايقنت ان ما قالته الين انما هو الحقيقة المؤلمة وقد حسبته مبالغة ... ان الموت سيخطف سلمى من بيننا وستتركنا الى الابد .. وضع ذلك في قلبي وفي نفسي وكأنما ذاك السرير ، بما عليه ، تبعني وتركز امام عيني يعرض لها تلك التي تهدمت وانهارت رمة يتدلى من فوقها رأس اطبق جفناه على تورم تخيف ، ومن شعرها الاشعث تاهت على الجبين العبي خصل بلها العرق المتصبب ، وتهدل خذاها حول شقيتها وغارا بين اخاديد غيبت كل اثر للجمال ولم تترك للشباب بقاياها التي صمدت امام السنين ومعقدات حياتها . انها ستتركنا الى الابد ...

هذا ما كانت تصرخ في نفسي فلا اجد منه مفرآ .

ولا قلها بصدق صاف كما انبثقت صادقة صافية : خاطرة وحيدة لست ادري لماذا خطرت وحدها في تلك الهنيئة الراجعة .. لقد شعرت بنقمة على من سيسارعون غدا الى تأبين سلمى ، وكتابة المقالات عنها ولا سيما بعض من هم من اصدقائها المقربين .. لقد تراءوا لنا ظري وسمعتهم باذني واحدة واحدة ، وواحدة واحدا في تلك اللحظة .. كأنما كل هذا سيرود اليها سلمى وسيكفر عما لاقته من صدود ولا مبالاة ... فامام الالتئاع على خسارتها كيف يعون التفكير بمثل هذه الامور ؟

هو الفراغ الذي لا سبيل الى ملئه في موضع سلمى ! انها انتهت ... فراغ ، فراغ .. هذا ما احسسته في غور الساء المتجوفة قبة هائلة راكدة مهيبة ، فوق عجيبيج هذه الدنيا الصاخبة باحزانها وآلامها ، بافراحها واوهامها ، بحركة الحياة والفناء فيها ...

ادرت رأسي نحو داخل الغرفة متجهة بانظاري الوجهة نحوها، فتراءى لي شبح الموت جاثماً على كتفيها الناحلتين المقوستين يدفع بها الى حفرة القبر .. وضعت منديلي بين اسناني لاختق بكائي ، ولكني عجزت عن كبت شهقة متقطعة اذ رأيت الرأس المسترخي فوق «الكومة» يتحرك محاولاً التطلع الى ما حوله، وخيل الي ان صوتها يهمس بجهد : من أتى ؟

— انا سلمى ...

وقفزت الى قربها افقش عن شيء من سلمى في هذه الحظفة من الوعي .
— اهلي ؟ .. اين كنت حتى الان ؟

... —

ورحت احدثها واحديث شقيقها التي كانت تكفكف دموعها بهدوء ولم اذ لاحظت التبايعي ، وحاولنا انعاش معنويات العلية بالتحدث عن اشياء تافهة .

— الا يروعك ان تري سلمى على هذه الحال ؟ قالتها لي بالفرنسية .

ولست ادري لم اختارت سلمى هذه اللغة دون سواها بكل حديثها الاخير معي .. انما الذي ادريه انني جاريته بذلك واجبتها مداعبة مطمئنة :

— كل ما يتعلق بسلمى يجب ان يكون فذاً ، غريباً ، هائلاً .. فانت تودين دوما ان تمتحني بحبة اصدقائك لك وتري اي شأن لك عندهم ، لذا فانت في كل مرة تفلقنيهم بنوبات مرضية تبدو خطيرة ، ثم لا تلبث ان تزول ، كما ستزول هذه المرة .

— هذه المرة يبدو انها لن تزول بل ستزول ...

تطلعتني من بين اجفانها المتورمة وتاهت ابتسامه ، شائمة ، مريرة على بشرة فكيتها ، وهزت رأسها هزة انكسب بعدها على صدرها « القفص » وراحت في غيبوبة طويلة ..

- ما هو الجديد الذي طرأ ... همست اسأل شقيقته الذاهلة .

- تبين ان القلب غائص في الماء يحوط رثتها ، وقد تورمت كلها كما ترين -

وتبعث نظرها الى ساقى سلمى المتدليتين على الكرسي ، بعد ان عجزت عن الاستلقاء
والتمدد - فصارت تنام جالسة مسندة بالوسائد ، والعرق يغمرها باستمرار كما
تلاحظين ...

انه ...

- املي ...

- نعم سلمى ؟

- امسحي لي العرق عن وجهي

- « تكرم عينك يا سلمى ! ولكن الاترين ان هذا « الشال » كثيف في

مثل هذا الحر ؟ ضعني شال حرير بدل الصوف فنحن في ايلول وفي بيروت .

- كلا ، اخاف ان يلسعني الهواء فتسوء حالي .. انها « ذات الرثة » يا املي ..

هيئات لو انها ذات رثة !

عاودتها الغيبوبة ...

وساد في الغرفة صمت كاد يخنقني ..

طال الصمت ودالت الغيبوبة والعرق ما زال يتصبب من كل جسمها .

- هل ذهبت املي ؟

- كلا سلمى ، انا هنا ... هل تأذنين ؟ فانا على موعد ، ولكنني سأجيتك

غدا واقضي معك ساعات طوالا ..

- ان سلمى راحلة يا املي فلا تبخلوا عليها بالقليل من وقتكم في ساعاتها

الاخيرة ...

وراحت في اغفاء اعلنت عندها الممرضة ضرورة اخلاء الغرفة ...

ان الغصة والندم يقطعان قلبي كلما ذكرت هذه العبارة ..
اجل ، قالت لي ذلك ولكنني انصرفت على كل حال لاني كنت على موعد ،
كأن مواعيدي لم يكن بالامكان تأجيله او الغاؤه ، فلا انجل على سلمى بكل دقيقة
من وقتي في ساعاتها الاخيرة ..

آه ما اقسى الانسان ساعة يهرب من اجواء الالم والمشاهد الموحجة ..
ولكنني اذكر اني قلت لها مؤكدة اني ساحضر في الغد مع بعض تلميذات لها
من بنات جوارى سمعني احدث جاري عنها في طريقي الى المستشفى .
وكأنما وخزها وعدي هذا فانتفضت المعلمة المحتضرة تقول في توسل الصارخ
العيبي :

— لا .. لا .. بعد غد .. اسناني عند الطبيب ...
وخانتها الحنجرة التعبي ، فاستعانت بيمينها تشير بها الى فمها الادرد الفارغ
المتقلص ...

وشئت ان اريحها من لوعة حسنها ذاك ، فربت على كتفها اقول بحرقه مبتسمة:
فهمت ، فهمت ... آه يا غندوره !
لقد كانت المرأة المستكملة الانوثة بكل ملاحظتها وظرفها واناقتها . كانت تود
لو استطاعت ان تستقبل الموت مليحة ، ظريفة ، انيقة كعادتها .

ألم اقل اني كنت قاسية ساعة اعتذرت وتركت سلمى لموعد سابق ، لموعد عادي ؟

وجلست مساء على شرفة منزلي ، تغمرني ليلة قمرء هادئة . وكانت جلال الموت الذي كنت احسه في كل مكان قد نشر رهبته في سكون ذلك الليل . وفي غمرة تلك القمرء الرائعة الكثيبة ، وذلك الجلال المهيب وهذه الرهبة المنتشرة حولي ، كنت احس عجز الانسان في مأساة وجوده ...

احببت مرات ان اقوم واطير الى سلمى . ولو وافقتني صديق كان الى جانبي في ذلك الصمت المثلل بالاشباح الحزينة ، لفعلت واتي سلمى ليلا لا كون معها في جميع لحظاتها الاخيرة فاشاركها الاحاسيس الكثيبة المريرة العاتبة ، ولاؤنسها في ذلك الاغتراب الذي يغمر النفوس التي هي من طبيعة سلمى ...

اتيئها في الغد ، وكانت ابنتها « عائده » بقرها تنهش الحمى جسدها النحيل ، فرجوتها ان تأوي الى فراشها وتتركني وامها فلن ابارحها قبل ان تنام .

وشعرت بشيء من التفريج عن صدري اذ خيل الي ان في حالة سلمى بعض التحسن . فقد بادرتني بسؤال بدا لي معه ان ظل ابتسامه شاع على وجهها فكان اقل نهديلا وتورماً ... قالت متهمكة :

— هل انت على موعد اليوم ايضا ؟

— كلا يا سلمى ، لقد تحررت من جميع مواعيدي وسابقي معك حتى تنامي .

ولقد اصطحبت جاري هذه لتراتقني في العودة فاطمأني ...

قلت ان حالة سلمى تحسنت بالنسبة للامس اذ استطاعت ان تحدثني فتزودني بافكارها ومشاعرها الاخيرة ...

ولاحظت ان اكثر ما ضايقها ان تنشر الممرضة الاشياء التي تستعملها على السرير او على الطاولة ، فتسيء الى ترتيب الغرفة ، فتطلب مني بعصية ظاهرة ان اصالح ذلك. فافعل مازحة وانا افكر بان سلمى الانيقة لا تشاء ان تنازل عن اناقتها حتى في اوجع ساعاتها .

حدثتني عن زيارة سيدة لها كان جو الزمالة بينهما قد تعكر ، واخبرتني انها اطعمتها بيدها وانها عبرت لها عن كثير من المحبة والود ... وتهدت سلمى : هل يتحتم ان نموت او نكاد... حتى ننعم بصفاء القلوب ونتمتع بطيب المحبة ؟ .. وصمتت ثم تابعت : لنغفر على كل حال ، لنغفر ، لنغفر يا املي ... المغفرة هي اسمى ما ترتفع اليه النفس البشرية ، واغنى ما فيها من عناصر الانسان .. قالت هذا ، وانتابتها غيبوبة قصيرة ، فتوجهت الى الشرفة اتأمل فعل المغفرة (اغنى ما في النفس البشرية من عناصر الانسان) . نادتني سائلة :

ما بالك تؤثرين البقاء على الشرفة ؟ كلما فتشت عنك وجدتك هناك . هل تهربين من منظر سلمى المرعب .. ؟ اجل ، اجل انه مرعب منظر سلمى ، فتفحصيني جيداً يا املي ، تفحصيني واتعظي ، اجل اتعظي .. وايقني ان ليس ثمة من يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية ، لا الاصدقاء ، ولا الاحباب ، حتى ولا الاولاد ، فاتعظي يا املي ...

???

« ليس ثمة من يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية ، لا الاصدقاء ولا الاحباب حتى ولا الاولاد ! »

كيف غابت عن ذهن سلمى ، في هذه الساعات ، مسألة بذل الشباب والعافية من اجل فكرة او هدف سام صادق الغاية ؟

ثم كيف استطيع ان اوفق بين ما تبديه الان من انكماش وتقتير في البذل والعطاء ، من النفس والروح والقلب ، حتى ومن الشباب والعافية ، وبين ما قائلته منذ لحظات عن المغفرة ؟ وكيف يجب ان نغفر ونعرف كيف نغفر ، وفي

المغفرة جميع اشكال البذل والعطاء ، وانبل مظهر من مظاهر السخاء الذي لا يعرف التحديد ؟

وهل صحيح ان النفوس التي هي من طبيعة سلمى تحب ، او تستطيع ان تحب دون ان تبذل وتضحى بالفس وبالروح والشباب والعافية ؟

يتوهم الانسان ، وهو تحت تأثير الانفعالات ، منها تفاوتت ، ان الحقائق وضحت له ، فيطلقها آراء متضاربة متناقضة ، وفي كل منها لهجة المقتنع الواثق من صحة ما يقول ويعتقد .

لا شك في ان سلمى كانت مرتاحة لبادرة زميلتها التي زارتها واطعمتها بيدها ، رغم المرارة العميقة التي ابدتها حين قالت : « هل يتحتم ان نموت او نكاد حتى ننعيم بصفاء القلوب ونتمتع بطيب المحبة ؟ .. » لا شك في انها كانت مرتاحة لتلك البادرة ، فتهجرت في نفسها دفقة من المحبة والسخاء فدعت الى المغفرة ، ولا شك في انها كانت منفعلة ساعة قالت ان لا شيء ولا احد في هذه الدنيا يستحق ان يفدى بالشباب والعافية .

ولكن النفوس التي هي من طبيعتك يا سلمى ، لا يمكنها ان تتذوق الحب ، مهما خيبتها الخبر ، ولا ان تحسه بقوة وبكليته وبعمقه ، ايا كان نوع هذا الحب ، الا اذا اعطت وبذلت من شبابها وعافيتها .. انها لا تدرك الحب بلا غبطة العطاء .

فالحب في نظر هذه النفوس ، ليس عملية حسابية تصح فيها المقارنات بين ما هو رابح وبين ما هو خاسر . حتى اذا ما اعترض طريق الحب في سياق حبه مناسبات تستدعي البذل في سبيل هناء حبيبته وراحته ، عمد الى التعقل « الحسائي » وتردد في هذا البذل « لان لا شيء في هذه الدنيا يستحق ... » ومتى استطاع المحبون ان يترددوا في عطايتهم ، او ان يحسوا بانهم يعطون شيئاً اذا ما اعطوا ، فانهم ان فعلوا انتفى الصدق من حبههم وابتوا على مسرح الحب ممثلين ليس الا ، ولو تلبسوا الادوار بمهارة !! .

اراني شططت عن الموضوع ، واخشى ان اطيل هذا الفصل الذي حرصت ألا
انسى فيه بادرة صدرت عن سلمى في ساعاتها الاخيرة ..

كانت الساعة قد قاربت الثامنة حين افاقت سلمى من احدى غيوباتها وطلبت
شيئاً من الممرضة ... فهممت بالخروج من الغرفة ، الا انها استبقتني بالحاج مومنة
الي ان اصرف جاري . فالتفت اليها والى الممرضة مستغربة هذا الطلب .. ولكنها
ما لبثت ان فسرت لي مغزى بادرتها اذ قالت :

ابقي وانظري بام عينك بؤس الانسان وشقاءه في مصيره المفجع .
وبينا كنت والممرضة نسعف سلمى في تلك اللحظات المفجعة حقاً ، كانت
تتمتم :

امي ، تصوري سلمى على هذه الحال ، يالها من مأساة بالنسبة اليها ...
كنت قد ارهقت ساعة انتهينا من مساعدة سلمى ، وقد بدا لي انها خشيت ألا
ترتدع الممرضة عن اظهار تبومها اذا ما خلت بها ، فنفس سلمى كانت من النفوس
التي لا تفقد تلك الاوهام الحلوة . انها محبة الى كل نفس ، عزيزة على كل قلب ،
فلا تنفك تتغنج وتتدلل وقد آلمها ان تصبح موضع تبوم وازعاج . سعت للتهرب
من ملاحظة ذلك في شتى الاساليب ومنها ان استبقيني في الغرفة لعل الممرضة
نكبت تبومها فلا تنكبها بان تريها بانها لم تعد « دلوعة » الجميع .

كنت قد ارهقت واكثر ما ارهقت ما رأيته من شقاء الانسان وبؤسه ، كما
قالت سلمى ، حين يعجز او يعجزه الداء عن ان يلي حاجاته بنفسه ، فيصبح عبداً
مقيداً ، بل اشد استعباداً من العبد لان هذا يفرج عن نفسه بارادة تحطيم سلاسل .
ويصبح مقهوراً بلا طاغية يروم قهره . انه « الكومة » العاجزة امام قدرة لا يعيها
ولا يدرك ماهيتها ، فيستسلم ويثن .. وانت سلمى وكأنها ادرت ما يحول في
خاطري اذ لاحظت صمتي وذهولي : فقالت : ارأيت شقاء الانسان وبؤسه ؟

فصمت ...

باشرت بعد هذا اطعامها وناولتها بيدي اخر عشاء وقلت لها :

— سلمى ! اود لو اقول لك شيئاً ، واخشى ان تهمني بالقساوة من جديد ..
اني مضطرة الى الذهاب غدا الى المريجات حيث والدتي تنتظرني وقد مضى
الصيف كله ولم ترني الا مرة .. فلن تقبل عذرا لي البتة . ولكني ساعود غب
الغداء وسأكون عندك الساعة الرابعة على الاكثر فابقى الى ان تنامي ..
هل توافقين ؟

— تسأليني هل اوافق ، وكأنك تعدلين عن الذهاب ان قلت لا !

— قسماً يا سلمى اعدل ان طلبت ، فالامر ينقضي بمخاطبة هاتفة ..

بل اذهبي يا املي ... ان لي في المريجات ذكريات عذبة ، واني احبها ...
ولكني ارجو شيئاً أمل ان تحقيقه فتذهبي الى كنيسة البلدة الصغيرة وتبلي صلاة
موجزة لعل الله هناك يستمع اليك فيمن علي بالشفاء .

— سافعل ذلك .. ورحمة عمي !

قبلتها أهم بالذهاب فيما هي تحاول الابتسام لذكرى .. وكانت الساعة قد
تجاوزت التاسعة .. ولكنها توسلت الي ألا اذهب قبل ان يحضر الطبيب ويسعفها
بأبرة مسكنة لتنام شأنه في كل ليلة ، فهي تخشى ان يبخل بها عليها اذا لم يكن قربها
من يساعدها في رجائها .. فبقيت وطلبت ان اقابل الطبيب ..

غادرت الغرفة وعدت معه بعد لحظات ، فوعدها بحضوري بالمسكن في المزيغ
الثاني لتنام مرتاحة حتى الصباح ..

فودعتها لانصرف وجارتي الفارقة في صمت عميق ، وقد عرفت سلمى انيقة ،
ظريفة ، متملىء حيوية يوم كانت لي ولها جارة الحي ...

واستوقفتني انه مديدة موجهة ، وقد غمر الغرفة سكون المستشفى الرهيب في

مثل هذه الساعات التي تتواءم فيها على الجدران وفي اجواء الممرات اشباح رابعة
مقلقة تدافع من طيات الليل الطويل على ضوء المصابيح الباهتة حول كل مريض ...
فاذا سلمى تنتم :

— اتراها آخر ليالي ؟

— كفي عن هذه الوسوس يا سلمى ! ... فموعدنا غدا : ترافقيني بالحاطر الى
كنيسة المريجات الصغيرة وستشعرين بتحسن .. على هذه الخاطرة اهدأي واستسلمي
للقاد .. الى الغد سلمى ..

واسرعت بالهرب ، اجل بالهرب من هذا الجو الموحش المثلث بالتخييلات
السوداء ...



قبل ان اغادر بيروت صباح ذاك الاحد ، السابع والعشرين من ايلول سنة
١٩٥٣ خابرت المستشفى لاطمئن الى حالتها ، فعلمت ان ليلتها لم تنقض على ما
يرام .. ترددت في الذهاب ، ثم تذكرت رغبتي في زيارة الكنيسة ..

وارى هنا ان اشير الى امر قد يكون شخصياً حميماً بالنسبة الي ، كما قد
يكون مشتركاً مع جميع البشر : اني اؤمن بالدعاء والتضرع . لمن ؟ لا ادري ،
ولكنني اؤمن بصورة لا واعية مهمة بان هنالك صلة روحية مع شيء لا ادركه ،
يمكن للانسان ان يتضرع اليه حين يحرق خطر مجيب اليه او حين يجده امام
كارثة ما .. يفعل هذا دون تحليل ولا حوار ذاتي . ومن اجل هذا قررت ان
اذهب الى المريجات فازور كنيستها تلبية لرغبة سلمى في ذلك ، فلعل لهذه
الزيارة وللصلاة التي سأتلوها تأثيراً على مصير الحبيبة ..

وصلت الى المريجات فاستأذنت والدتي ومضيت تواء الى الكنيسة .. وما ان
وقعت عيناى على المدخل والفيت الباب موصداً حتى احسست بضيق في صدري
فوجدت وتشاءمت ... فما لبثت ان ضحكت من نفسي وهزرت رأسي ومضيت
حتى باب الكنيسة الموصد تغمرني الاجواء الفسيحة فوق سهول البقاع المنبسطة في

هداة الظهيرة بر كودها الشامل حيث الله كله ، وألقيت رأسي بنحشوع على خشبه
وتلوت صلاة وجيزة كأني اذكر الكنيسة بزائرة لها قديمة حلوة شقراء اجبتها وهي
الآن تحت رحمة الموت .

... وعدت الى بيتي ، فلم اصعد اليه ، بل ناديت اولادي والخدمة طالبة منهم
ان يتصلوا هاتفياً بالمستشفى قبل ان استأنف مسيري اليه . كنت اريد ان اعرف
شيئاً عنها في تلك اللحظة بالذات ، اذ ضج بي القلق فما استمهاني حتى اصل اليها .
وطال جواب الاولاد والخدمة فاستعنت « بزمور » السيارة استعجلهم الجواب
حتى اطل من النافذة ابني الاكبر طالباً الى الصعود ... قفز قلبي في صدري فلم
اجسر ان استفسر او استفهم حتى ولا بنظرة ، بل اطعت وطلعت السلم متناقلة
الخطى ، مشتتة الذهن وارتميت على المقعد ... ولم يفه احد بكلمة ولا بحركة ما .
ففهمت .. وسألت بعد لحظات صمت :

- متى حدث ذلك ؟

- في الساعة الواحدة ، هكذا افادتنا الممرضة هاتفياً .

- والجثمان ؟ اهو في بيت ابنتها ام في بيتها ؟

- في بيتها ...

ميلادها عيد

الاولاد في هو عما يحاول من في البيت الهاءم عنه .. وهم في شغل مهم يستأثر بكل اهتمامهم .. فالليلة ليلة البربارة ، وعليهم ان يتهياؤا بعد حين لمرافقة اجواق لحى والطواف في الشوارع ، وطرق الابواب ، تنطلق من حناجرهم امامها اناشيد اطراء لربات المنازل ان استقبلنهم بشوشات لطيفات ، والا فسرعات ما تنقلب عليهن اراجيز هجاء ... انهم يرددون هذه الاناشيد ليحفظوها ، فما اشد الجلبة التي يحدثون في البيت !

عليهم ، عملا بتقليد البربارة ان يتزوا بالازياء المتنوعة : هذا يمثل « مهر اجا هنديا » فيتزيى بزيه ، وذاك يلبس رداء فارس عربي ، وهذه اميرة اسبانية ، وتلك قروية هولندية .. وما اكثر الاشياء المبعثرة في كل مكان : هنا عقال وكوفية ، وهناك وردة الاسبانية و« تنورتها » الوسيعة ... اشياء ملقاة على الاسرة وعلى المقاعد ، يحوم الصغار حولها بحمى الزهو وفرحة الانطلاق ، يجربونها راضين تارة ومستائين طورا ، وهم لا يستقرون على حال .

اما الشقيقة الكبرى ، فلديها من المهام ما يتعدى هذه التوافه . فهي الى تهيئة القمح المسلوق وتزينه بقلوب اللوز والصنوبر والفسق لتقدمه لاجواق المتسكرين ، تتولى مسؤوليات خطيرة ، ولا غرو فهي ربة البيت بالوكالة وامها تجتاز مرحلة الحاض .. سيقبل على دنيا هذا البيت كائن جديد ...

في الخارج ، رياح تنصف وتعوي ، وزمهرير الصقيع يتسلل من المنافذ ، فعلى ربة البيت بالوكالة ، ان تصرف الصغار عن الخروج فتقيهم مخاطر الصقيع .

ما الحيلة لاستبقائهم ؟

علمت انهم لن يابهوا لارادتها اذا ما حاولت فرضها عليهم . ولن ينظروا اليها

ولا الى وكالتها نظرة جد، فهم يعرفون انها مثلهم وليس ببعيد يوم كانت تشار كهم
اللهو . لن يكثرثوا « لتفلسفها » عليهم الآن .. انها تدرك بالفطرة استعدادهم
الشعوري هذا .. فعليها اذن ان تهتدي الى حيلة فلا تفشل في مهمة ادارة البيت .. انها
التجربة الاولى لمدى كفاءتها في ان تحقق انوثتها في المستقبل فتصبح ربة منزل .. .
وستجتاز التجربة بتفوق .. ولن تتعرض لتهمك الصغار واستخفافهم بها .

وتتقن ذهنها عن الحيلة المطلوبة : الليلة عيد البرابرة ، والتقليد يقضي ، الى
جانب التزيي بمختلف نماذج البشر و سلق القمح وتقديمه لهذه النماذج ، ان تزرع في
آنية صغيرة حبات من القمح والعنبر وسواها ، لتنبث قبل الميلاد الالهى فتزين
بها مغارة المسيح التي تبني في البيوت تذكيراً بمغارة بيت لحم .

انت بيعض حبوب واعلنت للصغار انها ستزرعها في الاوعية التي يرون دون
ان تضع حبة واحدة من التراب ، وان هذه الحبات ستنبث مع هذا وتتشابك
« شروشها » .

فما لبثت عملية الزرع هذه ان استهوتهم ، لاسيما لما احضرت الشقيقة « الام
بالوكالة » رؤوساً من الشمندر ووضعتها على فوهات « مراطين » زجاجية ملائها
ماء حتى انغمس اسفل الرؤوس فيها ، واكدت لهم ان هذه الرؤوس لا تلبث ،
شأنها شأن الحبات في الاوعية ، ان تظهر الشروش في اسفلها وان تتفتح عن وريقات
خضراء تستعمل كبعض زخارف في مغارة المسيح .

فرح الصغار كثيراً بعملية الزرع هذه ، ونسوا اجواق الحي ورغبتهم في
الخروج ...

وفي هذا المرح والمرج ، وعويل الرياح في الخارج ، كانت بعض اناث تنفذ
الى الآذان من احدى غرف البيت ، وقد اغلق بابها بجرص ، وحرّم على الاولاد
ولوجها . لقد اتفق الجميع ضمناً على ان يحاط هذا الحدث ، حدث الولادة بشئ
الخرافات ، وان تحاك حوله للصغار مختلف الحكايات والتوبيعات .

وما ان انبلج الفجر ، والكل نيام الا المولدة ورب الاسرة ونسبيتان ، حتى
انطلقت صرخة مولود اطل على الحياة تبعها أنات متواصلة عيية ثم صرخة صغيرة
ثانية . لقد اقبلت على العالم في ذلك المخاض وليدتان توأمان احدهما تلك التي
اصبحت فيما بعد سلمي صائغ ..

كان ذلك في ليل ٣ كانون الاول من سنة ١٨٨٩ ، ليلة عيد البورارة ..

ت
ا
ق
ف
م
ا
ب
ا

طفولتها ومشاهد

رفعت صغيرة الاخوات الست ، وقد توفيت توأمتها ، بالنعمى في احضان الغنج والدلال ، كما هي الحال في الغالب مع اصغر اولاد الاسر ، ولم تكن استرضى البقاء بعيدة عن امها في حال من الاحوال .

ولنتركها تتحدث هي نفسها في احد فصول كتابها « صور وذكريات » عن تعلقها بامها قالت :

« في صباح احد الايام البعيدة ، اثر ليلة لم اتم فيها الا عند ذنو الفجر ، خرجت من البيت الكبير السعيد الملىء - يومئذ - بالوالدين وبالاخوة وبالاخوات ، وبعد ان قبلت اخوتي واخواتي ويدي امي ، دخلت مودعة بيتاً ثانياً سعيداً ، مليئاً هو الآخر بالهناء وبالصفاء . ذلك كان بيت عمي المرحوم فضل الله . قبلت يده ويد امرأة عمي فقبلا في وارضاني بالطاعة واستنزلا على رأسي رضى الله وتوفيقه .

« سعدت مع امي الى العربة ذات الجوادين فسارت بنا الى الاشرفية حيث قام صرح « زهرة الاحسان » وسلمتني امي الى الرئيسة الام مريم جهشان ، فسلمت عليها وقبلت يدها والصليب الذهبي المعلق على صدرها بسلسلة ذهبية . » قالت امي :

- هذه ابنتي الصغرى السادسة رفيقة التوأمين ، وهي آخر من يتعلم في مدرستك من بناتي ... لقد ابقيتها في البيت سنة ، فهي خيفة وصغيرة ومتعلقة بي اكثر من كل اخواتها .

ثم تتابع : « وكثيراً ما نعوا علي في البيت هذا التعلق ، وانهمالوا علي بنعوت كانت تبكييني ، وانتقدوني لاني لا اناهم الا قرب امي . وكثيراً ما حاول اخوتي واخواتي ان يفرضوا سيطرتهم علي ويجربوا سلطتهم فيّ ، فسحبوني الى

النوم وحدي ... فكنت اعاند حيناً ، متعللة بشدة البرد ، او ابكي فيتركوني ليتخلصوا من بكائي ، واذعن حيناً طائعة طاعة موقته ، وما ان يتفرقوا ويناموا وتطفأ الانوار ، حتى انهض وامشي حافية القدمين على رؤوس اصابعي ، واذهب الى امي فادخل الى نعيمي تحت ذلك الغطاء الدافئ ، التصق بها بعد ان اضع ذراعي الصغيرة على خصرها ، وعلى عنقها الى ما يلي الصدر . »

فسلمى ، كما رأينا ، كانت تتوق منذ صغرها الى نعيم اللفة الدافئة تحت جناحي قلب صادق محب فلا تستطيع الانسلاخ عنه متى وجدته ، وكان هذا النعيم يومذاك « تحت غطاء امها الدافئ حيث تلتصق بها .. » ومن قسوة الحياة على سلمى انها لم تتذوق هذا النعيم في دفء جو العائلة الهانئ . الأليف .. نشأت اول عمرها في هذا النعيم من دفء العاطفة فتفتحت نفسها على دنيا المشاعر البشرية في جو من الغبطة والاكتفاء النفسي لم يبيتها لان تصد امام خيبات الحياة ومعقداتها ، او ان تفهم واقع هذه الحياة الذي يفرض على الناس ان يتوقفوا عند رغبات سواهم ونظرتهم الى الامور ، بقدر ما يرغبون او يشتهون ان يتوقف سواهم عند رغباتهم وآرائهم . وقد تكون هذه الناحية من طبع سلمى جعلت حياتها مع رفيق له شخصيته ، وشخصيته القوية الخاصة هو الآخر ، صعبة الاستقرار ، بعيدة عن جو التفاهم او التسامح .

وبحكم نشأتها في اسرة ميسورة لم تتعرف الى مشا كل العيش ، كما انها لم تتعرف الى ماهية الوسائل المادية التي تؤمن او لا تؤمن شروط هذا العيش . فاخواتها الخمس واخوتها الاربعة كانوا يرسلون جميعهم الى المدارس دون ان يشكل الامر اي سبب للقلق بالنسبة الى الامرة ولا اية عقدة نفسية بالتالي بالنسبة الى الاولاد . كذلك كانت مسألة الكساء ، الكساء المتقن الانيق ، كلها امور كانت تشيع البهجة والزهو في نفوس بنات هذه الاسرة وابنائها .

ولعل هذا الواقع كان من العوامل التي هذبت ذوق سلمى وصقلته بحيث ظلت سيدة الانوثة الانيقة حتى في حالة الاعياء الذي هدم حيويتها في سنتها الاخيرتين .

بقيت اذن في نشأتها بعيدة عن مفردات الحياة جميعها من حيث اسبابها المادية ،
فظل ادبها بعيداً عن معالجة هذه القضايا بروح الواقع وتحري جذور مشاكل
الاجتمع الانساني الحياتية .

على ان يؤس الناس كان من الامور التي ادمت نفسها ودفعتها الى عمل الخير
والاسهام في انشاء المؤسسات الخيرية التي كانت تظنها علاجاً لهذا الواقع المؤلم :
واقع المحرومين البؤساء ، واقع المعوزين لادنى شروط العيش البشري .

ومن اعمالها في هذا الحقل الانساني نشاطها الكبير الاثر في تأسيس مأوى غزير
يوم زارت لبنان السيدة خالدة اديب ، وسنلقي ذلك على دروب حياتها في ما يلي
من هذا السياق .

ولعل من الاسباب التي جعلت سلمى تتناول معالجة هذه الناحية الاجتماعية
على حس اختلاجات المطلقات الشعورية المبهمة بدلا من ان تتناولها على الاسس العلمية
الصحيحة ، ليس كونها من اسرة ميسورة بقدر ما هو بعدها عن دراسة المعقدات
الاجتماعية واسبابها .

وعلى هذا فان غضبتها امام منظر البؤس والحرمات ، كانت تأتي صرخة
انسانية صادقة صافية ، الا انها لم تكن لتشير الاذهان الى اسبابها الحقيقية ، وبالتالي
لم تكن لتهديم الى كيفية العلاج .

ولعل وضع « الحبي » الذي كانت تعيش فيه اسهم في زرع بعض الاوهام
لديها وفي غوها حول هذا الموضوع .

ف« حبي » المصيطبه الذي يقع في الجنوب النربي من بيروت ، يمتاز
بظاهرة قد تكون خاصة : فهو يضم بيوتات من اكبر الاسر واكثرها اثراء ، كما
يضم الكثير من الاكواخ الخشبية البائسة التي تؤوي العديد من الاسر الفقيرة
المعدمة ، ولا سيما في عهد طفولة سلمى .

فكانت عينا الصغيرة تقعان ، حين تخرج للعب او لتذهب الى المدرسة ايام

كانت تتلقى دروسها الابتدائية في مدرسة المصيطبة الانكليزية ، قبل التحاقها بمدرسة زهرة الاحسان - كانت عينها تقعان على زمر من الاولاد تنتشر في الازقة ، بعيدة عن المدرسة وعن جو الحياة العائلية المنظمة ، فريسة للاوساخ ، والعوبة في يد المصادفات ، لا يجتمعها حول مائدة غذاء تقدمه ربة اسرة تسنى لها ان تحول ثمرة اتعاب رفيقها الى طعام يطلق اجساد صغارها في غو طبيعي .

وكانت ترى في المساء قبل النوم ، وفي الصباح بعده ، السحن ذاتها تحمل القذارة الى مضجعها وتصطحبها معها منه . ترى ذلك القبح القذر ، الى جانب ظرف اولاد البيوت الميسورة ونظافتهم ونقاوتهم ، فتحسب ان كسل امهات اولئك او جهلهم ما هو قبيح او جميل هو الذي سبب ذلك المظهر البشع . ولم تكن لتدرك ان نظرة ربات هذه الاسر - عفواً لأولئك المساكين شيء من مقومات الاسر حتى يكون لها ربة ؟ - لم تكن لتدرك ان نظرة تلك المخلوقات البائسة للحياة لا يمكن ان تنطوي على روح الالفة وتفهم الروابط الحلوة التي تشد افراد الاسرة عادة بعضهم الى بعض كي تتولد فكرة العناية . كما ان وسائل العناية ذاتها مفقودة لدى هذه الجماعات ، وتعتقد العيش فيها لا يترك وقتاً للتنعم بغبطة الالفة العائلية ، فتعيش عيشة هي الى البهيمية اقرب منها الى الانسان .

وهذا ما لم تتيينه سلمى الصغيرة ، ولم يكن من الطبيعي ان تتيينه يومذاك .
الا ان اشتهزازها من رؤية كل ما هو قبيح قدر ظل مسيطراً عليها حتى في سني نضجها ، فكان العامل الذي ابعدها عن التعمق في درس اوضاع اولئك البؤساء .

اما حياتها في مدرسة « زهرة الاحسان » الداخلية فكانت تنبئ بان هذه الفتاة الصغيرة غنية بالعاطفة البشرية العميقة ، بقدر ما هي متوقدة الذكاء ، تقفز الصفوف وتلحق بالرفيقات اللواتي سبقنها .

و شاءت الظروف ان يكون مدار الامور في هذه المدرسة منسجماً وطبيعة هذا الكائن الذي ترخر نفسه بالاحاسيس البشرية السخية ، فتشهد سلمى الصغيرة مأساة من اسد المآسي البشرية فجميعه وادهاها بلاء تشهد معلمة اصبحت بالعمى ، تتابع عملها محاولة بثقي الاساليب اخفاء حقيقة امرها على التلميذات ، فتغيب الدروس بمساعدة تلميذة تصطفئها ، او احدى الراهبات ، ثم تأتي الى الصف تلقئها كأنها تقرأ في كتاب مفتوح .

نادت مديرة المعهد يوماً سلمى وقالت لها : « اصفي الى ولا تخبري احداً بما ساقوله لك . ان الانسة الن ضريرة و فهي تحضر دروسها في غرفتها قبل دخولها الصف ، وقد انتدبتك اليوم مكان « فلانة » التي ستغادر المدرسة ، لتقومي بهذا العمل » .

وراحت سلمى تدخل غرفة الانسة الن يومياً في الموعد المعين ، تقرأ لها صفحات تعينها لها تلك التي ما زالت تذكر في ظلمات العمى ارقاماً تراقصت امام ناظرها يوم هي بعد في عالم المبصرين المشرق .

ولتستمر مع سلمى بحديثها عن هذه « الروح البصيرة » في « صور وذكريات » تصف حال هاتيك المسكينة ، صاحبة « الروح الشفاء التي ابت على جسدها ان يأكل رغيته دون ثمن » قالت :

« وقام بيني وبين هذه المنكودة شبه معاهدة صامتة .. كانت الحبيثات من

التلميذات يترقبنها حتى تفتح باب غرفتها وتخرج الى الممشى الكبير ، فيقفن في منتصف الممشى ويبقين واقفات حتى تمر وتصطدم بهن . فاذا قدر وعلمت الرئيسة العطوفة بالامر ، نالهن العقاب الشديد . . . وفي احد الامساء اذ كنا على العشاء مدت يدها الى احدى الطاولات حيث اعتادت ان تضع الجرس ، وكانت يد شريرة قد ازاحته ووضعت مكانه قدح ماء .

« منذ ذلك اليوم تغير مكاني على المائدة ، فصرت في اخرها حيث اعتادت ان تقف ساعة وقوفنا للصلاة بعد ان تقرر الجرس . . . »
« وكانت يد شريرة قد ازاحت الجرس . . . ! »

اذا عاهات الناس مدعاة للضحك والتهو ؟ ..

وهل في التشويه سبب للتهم والتسلية ؟

اجل يا سلمي ، انها لشريرة تلك اليد التي ازاحت الجرس . . . بل انها لمجرمة بغیضة تلك النفس التي لا تنحني احتراماً وتقديراً لذوي العاهات المصابين في صميم وجودهم والمكابرين مع ذلك على واقصهم ، يخوضون غمار الحياة الى جانب اناس لم ينكبوا بتشويه ولا ابتلوا بعاهة . . . ان في كل لحظة من لحظات حياة اولئك المبتلين استمراراً لبطولة صميمية هي فوق كل البطولات لانها صامته ، مغمورة ، تتوجه من نفوسهم ، من محاربة ذواتهم ، بل من محاربة شيطان مركب النقص الذي يستولي بوساوسه على اذهانهم ، فيولد في نفوسهم عقداً ، ما اكثر ما تنقلب الى مأس في العلاقات العاطفية .

لكم احببت في سلمي هذه الظاهرة الانسانية في عطفها على المعلمة الضريرة وعدم انزلاقها الى « ابراز شخصيتها » في التعرض الى المنكودة شأن التلامذة في المدارس على الغالب ، حين يتعرضون الى الضعفاء او اصحاب العاهات . . . وكما احببت في سلمي ثورتها ايضا على من كن يحاولن الاساءة الى تلك المعلمة والنهي بعايتها اذ وصفت اليد التي ازاحت الجرس من امامها ووضعت مكانه قدح ماء ، بانها يد شريرة . . .

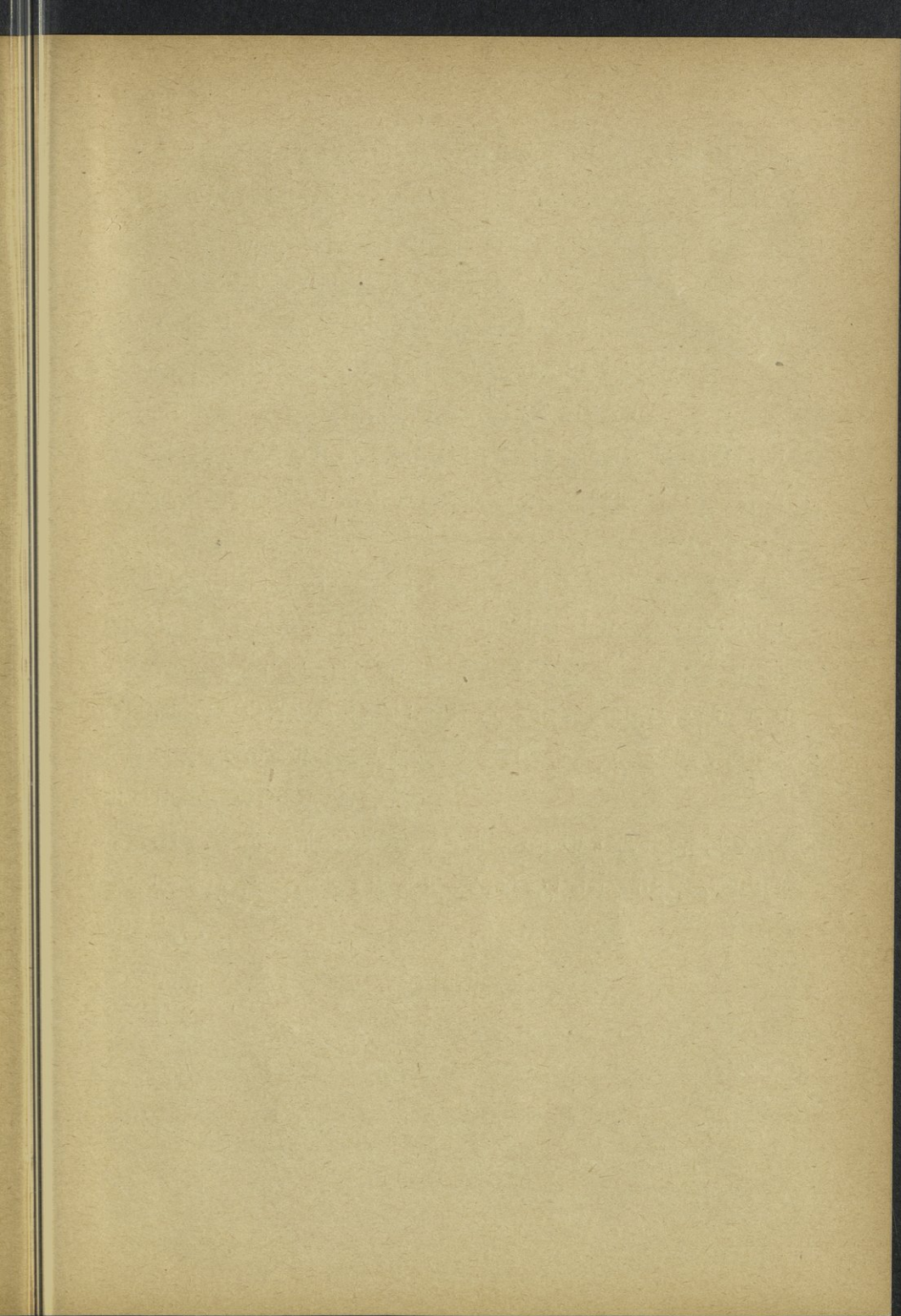
اجل يا سلمى ، انها لشريفة يد تلك التي ترى في عجز مخلوق عن تدارك ما يهيا له
من اساءة ، مدعاة للضحك والتلوي .

فضلاً عن هذا كانت سلمى تلميذة متفوقة . فبالرغم من انها كانت تجد صعوبة في
تعلم الفرنسية خلافا لما كان وضعها بالنسبة للغة العربية ، اذ كانت في الصفوف
الثانوية بينما كانت في صفوف الاطفال بالفرنسية ، فانها ما لبثت ، بعد السنة الاولى
ان قفزت الى الصف الثالث في الافرنسية وجارت تلميذاته عن جدارة .

وعلى هذا النحو كرت حياة سلمى في مدرسة زهرة الاحسان .
ويروي بعض اصدقائها انها تعلمت في فترات قصيرة في معاهد اخرى كمدرسة
الروم الارثوذكس ، طائفها ، وفي مدرسة البروتستانت للبنات ، وفي مدرسة
« الدجونيور كوليج الاميركية » .

على ان حياتها في زهرة الاحسان تركت اثراً عميقاً في نفسها . ظلت ذكريات
ايامها العذاب فيها تغمر نفسها بجنين ظل يدب في خناياها طوال حياتها المليئة
بالازمات النفسية . وانا لنجد في كتابها « صور وذكريات » مقاطع تفيض باريح
الشوق الى اجواء ذلك المعهد والى ما احتواه من وجوه احبها فظلت تذكرها
بحب ولهفة ... من تلك الوجوه املي سرسق ، والاخت مريم جهشان ، والمعلمة
اليونانية المنكودة الن ماركو .

وهكذا ، بين جو « البيت الكبير السعيد ، المليء بالوالدين وبالاخوة
وبالاخوات » وبين جو زهرة الاحسان وغيرها من المعاهد ، انتهى عهد الطفولة
في حياة سلمى .



شبابها انطلاق

فيها من صحو السماء على بحرنا ، تطلان واحتين ، من حدقتين اعتلتنا سماء تنبيه
عليها اخيلة من اغوار نفس غاصت الى الاعماق من هذا الكائن المعقد في ذاته
والسادر في مراميه .. وتجولان في الالامدى من مجالات الدنيا ، متأملتين ،
متسائلتين ، حائرinen بما يتخلج وبما يعتلج في العالم الاكبر المنطوي في الجرم
الصغير ، وبما تريانه من واقع وعرف يحدان من انطلاقانه وانفلاتانه في مجالاته ،
محلتين ، واعيتين ، حنوتين ...

انهما عيناهما !

لين ، خصب بموج ، يرخي على تلك الزرقة الحنون ، وعلى هاتيك الطلعة
الرائعة ، اشراق ذهيبية وادعة ...

انه شعرها ، تاج تلك الحلوة الشقراء !

اطلالة عذبة ، تنساب رقتها على كل ذلك الكائن اللطيف لتغدو انوثة غامرة .
هي الصبية الرائعة .

حب يدفق من قلب ، فيه تتجاوب الاحاسيس صادقة عفوية ، بريئة المطاوي ،
وفية لصدق العاطفة البشرية في عمق انسانيتها ...

انها سلمى !

انها تلك الحلوة الشقراء ، تلك الصبية تزهو بفتنتها ، وقد خرجت من بين
جدران المدرسة الى مجالات الحياة ، وهي تكتنز في نفسها كل ما في الفتوة البريئة
من امانيتها العذاب ، وايمانها بالحياة على كونها نعيما من الاستمتاع بالسعادة
والشباب ... على كونها الاطار الرائع لخلائق تضم في جوانبها قلوباً غنية بالعاطفة ،

قلوباً تتفجر ينابيع من الحب الصافي ، في دفقات من السخاء العفوي بعباء
كلي الروح والجسد ، سخاء في نظرة الى الناس ملؤها الثقة وصفاء النفس ، ملؤها
الايمان ببراءة الغاية عند الانسان ...

وفي هذه المرحلة من عمرها ، احست بميل الى المطالعة وبتوق الى ممارسة
الادب والكتابة .

ولكنها كانت مترددة وجللة ، خائفة ... فلجأت الى حيلة لطيفة ومألوفة ،
لجأت الى توقيع مقالاتها الاولى باسم مستعار هو : سلوى . وكانت تنشر اذ ذاك
في جريدة « البرق » لصاحبها الشاعر بشاره الحوري ، فترجمت نشراً ، قصيدتين
لفيكتور هيكو « اغاني منيروفا » و « على قيثارة فنوس » ومقالات اخرى تتصل
بشقاء البشر وبؤسهم .

ولم تتركها ضحايا الاناضول ، يوم انتقض السلطان عبد الحميد على الاتحاديين في
ثورته على الدستور ، عديمة التحسس بتلك الفاجعة التي غمرت الحرية بابشع اشكال
الطغيان ، فكتبت مقالا ، في جريدة البرق ، عنوانه « بوساء ١٩٠٩ » .

ولم تكن تأخذ مقالاتها بنفسها الى الجرائد ، بل تعهد بذلك الى احد اخوتها
فيليب الذي ظل يزعم ان كاتبة المقالات هي صديقة وجارة لاسرته ...

وراح القراء يتساءلون عن تكون سلوى هذه ... ويلحفون في التساؤل حتى
اضطرت ان تضيف كنية لهذا الاسم لعلها تسلم بذلك من تطفل القراء ، فبدأت
توقع ما تكتب باسم « سلوى معاون »

على ان احداً لم يوفق الى معرفة سلوى معاون هذه ، وظلت الكاتبة المجهولة
موضع تساؤل ...

كان ذلك بين عامي ١٩٠٩ - ١٩١٠

وفي ٦ شباط من عام ١٩١٠ اقام جورج باز ، باسم مجلته « الحساء » حفلة
تأبينية لرفيقة سلمى في المدرسة الادبية سلمى طراد التي توفيت في باريس .

فحضرت الاحتفال الذي تكلمت فيه ماري يني نسيبة الفقيدة، وقد لوحظ ان سلمى كانت شديدة التأثر .

ولفت جمالها وفنتها انظار الجميع ، وكان دم الشباب يصبغ خديها وذراعيها بحيث يشعر الناظر اليها ان الدم سينفر من تلك الحدود الرائعة التكوين ، الدقيقة الملامح .

واذا بشخص يقترب من منظمي الحفلة ويهس في اذن احدهم ، ان الفتاة سلمى صائغ اعدت كلمة للمناسبة . فسأل الرجل - وكانت الفتاة قد اثارت اعجابه واسترعت انتباهه فبقي يرمقها في فترات الحفلة - : من تكون سلمى صائغ ؟ فلتتفضل ...

وما ان اشار الهامس ، حتى اسرع المسؤول اليها ، وقد رقص قلبه وشاع السرور في نفسه لان تكون هذه الفاتنة تريد شيئاً باستطاعته هو ان يلبيه .

فدعاها الى المنبر .. الا انها خجلت واعتذرت عن الكلام بنفسها ورجت ان تتلى كلماتها بالنيابة عنها ، فقلها الاديب جرجي عطاالله .

وتشاء الصدف ان يتحدث بعض الحاضرين ، وبالمناسبة ، عن الكاتبة «سلوى معاون» وعن سر بقاءها مجهولة الشخصية .

فلم يتالك الشاعر بشاره الخوري لسانه عن الافشاء ، فاشار الى سلمى يقول بصوت سمعه اكثر الحاضرين :

اقدم لكم الآنسة سلمى صائغ ، صاحبة مقالات سلوى معاون .
فكانت المفاجأة ... وسرت في الحضور موجة اعجاب مزدوج : اعجاب بالفاتنة ، واعجاب بالكاتبة المفكرة .

اما الصبية الحُجلى ، فران على محياها لون وردي فاتن ، وانحنى رأسها صوب ذلك الصدر الناهد بالشباب الغض ، وراحت عينها تتيهان بين الجمع لا تجرؤ على لقاء انظار المتلفتين ...

ومنذ ذلك اليوم اقلعت عن التوقيع باسم مستعار . وكان خطابها «الارواح

النائمة» الذي القته في جمعية «شمس البر» في ٩-٢-١٩١١ ، المناسبة الاولى لاعلان اسمها الصحيح .

ولكن بعض المشككين راحوا يتهمون سلمى بانها تستكتب رجلا من اسرتها وتوقع هي ما يكتبون ... وانها في احسن الحالات تكتب ، هي ويصحح لها بعض الرجال ...

فانبرى جورج باز يدافع عنها ويؤكد انه مقتنع من ان سلمى تكتب هي كل ما توقع .

وقامت مناظرة صحفية طريفة بين جورج باز وسعيد عقل صاحب «البوق» الذي نبه صديقه باز الى انه لا يكفي ان يكون هو مقتنعا بشيء حتى يصدقه الآخرون .

ولم تخل هذه المناظرة من روح المداعبة الطريفة .

الا ان جورج باز لم يتراجع ، وظل يحدث الكتاب والادباء عن سلمى صانع ، ويسألهم رأيهم فيها وفي ما تكتب ، حتى قال له يوما الشيخ اسكندر العازار :
« ان الانسة سلمى اقدر على الكتابة من كثيرين من محروري جرائد سوريا » .

فاسرع الاستاذ باز الى اعلان هذا الرأي ، لما له من قيمة اكيدة ، واسكندر عازار يومذاك ، اديب المدينة .

الا ان هذا التصريح اوقع الشيخ العازار بورطة . فراح يعاتب صديقه « نصير السيدات » ، اذ « القيامة » ما لبثت ان قامت عليه ، فتجدد الكتاب والصحفيون لان يبادر فيعلن اسماء من تفضلهم سلمى صانع كتابة .
وفي غمرة هذا الجو الغني بالحوافز للانطلاق في اجواء الحياة ، اقبلت سلمى صانع على دنيا الشباب وهي تزهو بقتنتها وبفنها .

وراحت تعبر عن مشاعرها الزاخرة بالغنى العاطفي ، الصافية صفاء عينيها وروحها ، فتوسل مقاطع وجدانية ، انسانية عميقة ، متصلة اتصالا وثيقا بما يختلج في مجاهل النفس البشرية وهي في تفتحها على الحياة ، بأسلوب رائع ، يعبق شذى الرقة من بين سطوره ، ويختال براعها بما تخط وتبدع .

فجاء حولها طلاب الزواج ...

ولكن ، هل مثل سلمى ، هل لمثل هذه الصبية ، يزخر خيالها بأحلام الشباب ، وتنتبه في نفسها بمبهات الروح وهي في تفنناتها على دنيا العاطفة ، هل لها ان تلي طلابا أتوها على دروب تخلو أجواؤها من رفيف القلوب حين يجتذبها تشابك النظرات الوالهة ، طلابا لا تخفق في حناياهم الافئدة برعشاتها الحلوة حين تحوم في اخيلتهم وتهف صورة تدغدع نفوسهم وتراودها دون سائر الكائنات ؟

هل مثل سلمى ان تلتقي برفيق تختاره لحياتها ، الا على دروب العاطفة ؟ وهكذا ، فانها لم تلتق ذراعي هوى حتى عامها الثاني والعشرين .
بومذاك عرفت الدكتور فريد كساب ، الذي استهوته فيه رجولة في الجمال ، والذي كانت فيه تلك الشبكة الصيادة لورقاء الادب : شبكة الادب والبيان .
فلفريد كساب ، طبيب الاسنان ، مؤلفات ، منها « القضية الفلسطينية بين الارثوذكسية والاكليركية . وكان قد نشط في هذا الحقل مدة عامين ، منذ ما استوطن بيروت بعد ان ترك يافا بلده الاصيل .

احسنت سلمى بحاجة الى عناية طبيب اسنان فقادت اليه الصدف ، او قل دلها عليه اسمه الادي .

اجتازت الفتاة الحلوة الشقراء عتبة منزلها متجهة نحو شارع لبنان ، حيث كانت تقوم عيادة الدكتور كساب .. ومن يدري ، لعلها كانت تحس بشيء من هذا الذي تسميه بالقلق النفسي المبهم حيال بعض مناسبات التعارف : هي تكتب والدكتور يكتب ...

لعلها كانت تتوقع حدثا يقطع ذلك السياق الرتيب الذي كانت تسير عليه حياتها ، ويملا ذلك الفراغ الموحش الذي كانت تدور فيه ايامها ، رغم اطلالها

على دنيا الادب، ورغم بعض النشاط الذي كانت تبديه في هذا الميدان . فلا شيء
يملأ فراغ القلب ، ولا شيء يؤنس وحشة النفس الا عاطفة تغمر جميع نواحي
كيان الانسان ، بحيث تستحوذ على مشاعره وعقله ، وعلى نفسه وقلبه ، فيتجسّس
وجوده بشدة وعنف ، ويكون له في ذلك حافز للعمل ذي الاثر ، للعمل الغني
بالفاعلية ، حافز للجودة في الانتاج .

قلت ، لا شيء يملأ فراغ قلب الانسان ، ويؤنس وحشة نفسه ، مهما تعادت
نواحي نشاطه ، ومهما غمرته المشاغل ، الا عاطفة قوية توقظ تحسسه بوجوده بشدة
وعنف ، فلا يحس باغتراب .

قد تكون هذه العاطفة حباً لكائن نهواه ، كما تكون ايماناً برسالة تؤديها
فتستحوذ على كياننا ، وتجعل لوجودنا معنى وغاية ومبرراً . فلا سام ولا فراغ ،
ولا وحشة ولا استسلام او قدرية .

على ان التحسس برسالة تؤدى لم يكن حال هذه الصبية التي لم تطل على الحياة
الا من زاوية الاسرة الهانئة السعيدة ، فكانت حياتها تدور في رتابة وسأم .
لعلها اذن احبت ان توهم نفسها بان حدثاً يقطع ذلك السياق الرتيب في حياتها
سيبرز ، او لعلها ارادت ، منذ اللحظة الاولى التي خطت فيها اول خطوة نحو
الطبيب ، بعد ان القت على المرأة نظرة كلها خيلاء ، لعلها ارادت ان تستهوي
الطبيب الاديب وتفتعل هي هذا الحدث .

وهكذا افتتن الطبيب بحاسنها وجمالها ، وراح يربّب ، ما بين اسنانها ، في حديثه
اليها عن الداء الذي تشكو منه عبارات تحمل في غزاتها نسيات مما عصفت في نفسه
من وله .

وتكررت زيارات الفتاة ، وتكررت الاحاديث ... ولم يطل مجيء اليوم
الذي اقدم فيه الوالد على البوح بحبه قائلاً لها : انها اجمل مخلوق صنعه الاله ، وانها
« هي » التي كان ينتظر على دروب حياته .

انطلق خيال الفتاة على اجنحة السعادة والزهو ، فكانت حياتها كلها ضياء ،
وكلها ثقة ، وكلها عطاء ... ولم تبق زاوية من نفسها الا وغمرها الاشراق ،

وتفتحت عن أمان عذاب بحياة حلوة ، يعصف بها الهوى الجامح يرتشفه كائنات
خليقان بمثل هذا الهوى ... ألم يقل لها إنها أجمل مخلوق صنعته الاله وانها « هي »
التي كان ينتظر على دروب الحياة ؟
أو لم تكن هذه حالها هي ايضا : وقد كانت تنتظر هي الاخرى على دروب
الحياة ؟

اذن لقد كان ينتظرها ، كما كانت تنتظره ...
فيا لسحر هذا الذي قال .. وبالفعل الحدى البعيد البعيد الذي أحدثته
تلك الكلمات في قرارة نفسها ...
وهل لعنف انطلاقة هذا الحب ، يندفع من صميم فؤادها المؤمن المفتون ، الا
ان ينقلب الى كفر وكفران اذا ما خيب ؟

على ان حركات الفتاة المحمومة ، والخطافها فيما هي بين اهلها ، ومتاهاتها
الحالة ، امور لم تفت الاسرة ، فلم يطل بها الوقت حتى ربتت بين حالة الفتاة العصبية
وذلك الذهول المستولي عليها ، وبين زياراتها للطبيب واستمرار المعالجة التي طالت
حقا ... فجعلوا يضيقون عليها ، ويرافقونها في زياراتها اليه ، حتى ضاق صدر الفتاة
وكاد الكبت يخنقها .

ولكن ، هل استطاع احد في الدنيا ، او هل قويث اية سلطة في العالم على
الخوول دون حبيدين ، اذا ما شذت العاطفة الصحيحة ، والصفاء النفسي الكامل ،
والثقة الاكيدة بما يغمر نفس كل منهما من حب ونشوة ؟ وهل باءت اية محاولة او
مكيدة دبوت لتفريق قلبين الا بالفشل او الحطة ؟

وهكذا ، هل كان لآل الصايغ الذي لم تحدهم بالطبع الا العاطفة الصادقة نحو
ابنتهم ، اذ حرصوا على ان تأتي الامور في سياقها المشروع ، هل كان لهم ان
يقنعوا هذه الفتاة المتوقدة عاطفة وشباباً وانطلاقاً ، بان تلتزم الطريق المفروض
ان تكون المألوفة عند الفتيات في مثل هذه الحالات ... ؟
انه كان حبها الاول ، وهكذا فان النشوة التي غمرت نفسها لأول مرة ، لم

تكن لتجعلها تعي ما يقول لها اهلها ... ان مدار حياتها كلها اصبح في لحظات موافاة الطبيب وتبادل عبارات الهوى المتدفق من نفسها على سجية الصدق وانوفاء .

وكانت لآل الصايغ صديقة تدير مدرسة ، هي الانسة كلترين . والانسة كلترين هذه كانت شخصية تسترعي حقا : قامتها مشيقة ، دقيقة الخصر ، تذكر بسيدات القصور النبيلات ، ألف الناس رؤيتها بفسطاها الكعجلي ، تزينه حول العنق « قبة » بيضاء ، ناقية ، منشأة ، وعلى الاكام تخريج يتوافق مع القبة تفصيلا ونقاوة ، تحمل في الصيف وفي الشتاء شمسية واقية تلفها بعضها على بعض ، بحيث تبدو كالعصا الدقيقة ، تحملها بكثير من الباقة والظرف .

وتفتق ذهن سلمى عن حيلة استهدفت منها تمكنها من ملاقة الطبيب ، فزعمت يوماً أن الانسة كلترين بحاجة لمساعدتها في مدرستها بسبب مرض احدى المعلمات عندها .

وهكذا كانت سلمى تخرج كل يوم في ساعة معينة « لمساعدة الانسة كلترين » فلتلقي فريد كساب .

وشاع نبأ حب سلمى لفريد كساب وحب فريد كساب لسلمى ، وكان طبيعياً ان يتناول الناس الموضوع بالتحدث .

ففي حفلة لجمعية شمس البر تكلمت فيها سلمى عن « الارواح النائمة » وكان خطبها صدى استحسان ، قال احد الحضور ، بعد ان فرغت من القاء كلماتها : انها اليوم تخطب وبعد ايام « ستخطب » .. وكان هذا المتحدث يومئذ الى ما عرف عن حبها للدكتور فريد كساب .

وفي الواقع ، لم يطل الوقت حتى تقدم الدكتور كساب من آل صايغ يطلب ابنتهم سلمى .

اما يوم العرس فكان حقا مهرجان الشباب والظرف ، والادب والانسجام ، بين قرينين جدير كل منهما بالآخر ، بحيث اطلق المطران جيري اسيموس الذي كلمها هذه الملاحظة : لم ابارك في عمري عروسين مثل هذين السعدين ، انها جديرة به وانه جدير بها .

زواجها امنية

ان كل ما نعرفه عن سلمى ، وعن مزاجها ، وعن العاطفة في نفسها وذاتها ، وما نعرفه من خلال كتاباتها ، يدل على ان سلمى اقبلت على دنيا الزواج ، وفي نفسها غمرة من النشوة والامل بالحياة الهائلة بالحب والحنان ، الغنية بالالفة المستمرة في جو هيكل الحب ، الذي احست انها ستشيد به مع فريد كساب . . .

وكان من شدة حبها هذا ، وايمانها بهذا الحب ان عزمته على ان تتعلم ممارسة طب الاسنان لتساعد رفيقها فريداً في عمله وتوافقه في جميع مجالات الحياة .

وكان من شدة ايمانها بهذا الحب وبقائه على الايام ، ان اقسمت لفريد يوماً ، وطلبت اليه ان يقسم هو الآخر ، ايماناً بان يعض الرفيق الذي يبقى عيني الذي يسبقه الى عالم الاموات .

تلك كانت النشرة السماوية التي غمرت نفس سلمى ، يوم احست انها حققت حلم شبابها بزواجها من فريد كساب .

اما فريد كساب ، فماذا نعرف عن نفسيته ومزاجه ؟ ماذا نعرف عن شعوره الصميمي في هذه المرحلة بالذات من رجولته ، مرحلة اقباله على دنيا التمتع بهذه الرجولة ، وقد قلنا انها كانت رجولة جميلة ؟

أيسكون لعامل الجمال في الرجل ما لهذا العامل في المرأة من تأثير على سياق حياته ودفعه الى حد ليس بالمستهان في مزالق الابتذال والاساءة الى حرمة العاطفة في نفسه حتى متى وجدت هذه العاطفة ؟

لا شك في ان بكل مخلوق بشري ضعفاً طبيعياً ازاء مظاهر الاطراء ، وميلاً الى استثارة الاعجاب وكسب المودات ، ورغبة في ترك ابلغ الاثر في نفوس الناس ، لا شك في ذلك اطلاقاً .

الا ان مبلغ هذا الضعف يختلف باختلاف الامزجة ، اي باختلاف الخلق بالتالي ، كما انه قد يبدو اكثر ظهوراً وشيوعاً في امزجة من انعمت عليهم الطبيعة بشيء من محاسن الخلق وظرف المظهر ... هذه امور تنطبق على فريد كما تنطبق على سلمى .

ولكنه من المفروض ان لا يقع تحت تأثير هذه القاعدة اولئك الذين ينصرفون الى العمل العقلي بحيث يكونون قيد المدارك ، فلا يمكن ان يجرفهم تيار مجرى الحياة بصورة لا ارادية .

فلم يكن منتظراً ان يقع فريد كساب ، وهو الكاتب المفكر ، تحت تأثير ذلك الضعف البشري ، فيبادر الى اقتناص كل مناسبة للتأكد من فاعلية جمال الرجولة فيه .. لاسيما ، اجل ، لاسيما متى صادف على دروب الحياة - وهي المليئة بالمغريات لجميع الناس - من هي جديرة بان تملأ نفسه من الناحية العاطفية الفكرية ، وان ترضي اهواءه الى الظرف والشكل الجميل ..

كما انه كان على سلمى ايضاً ان لا تقع تحت تأثير هذا الضعف البشري ، فيما لو كانت هي التي بادرت الى الوقوع فيه .

ولا يستغربن زوج وقوع زوجته في هوة كان هو السابق اليها ... اليس رقيقة حياته ؟

واحب هنا ان اوضح امرأها ما جاء بالنسبة الي ، فلا يعتبر قولي في هذا الصدد من نوع الوعظ الجاف ، المتجاهل لانفعالات النفس العاطفية والتأثر بها ، وهي انفعالات لا تخضع لاية قاعدة ولا لاي ارشاد ، عندما تطفئ على مشاعر الانسان فتجرفه في غمرة النشوة ، لا يستطيع معها ان يعي الاشياء بمقاييسها العادية ، ولا ان يخطط لنفسه سلوكاً يتفق مع ما تقرضه عليه شتى الاعتبارات .

فرأت رفيقها جالساً الى اقدم فتاة ومعه يقول : « انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحات » فهربت مسرعة الى غرفتها ..) وها هي سلمى في اعماق تلك العروس الحائبة تقول :

« آه ما ابرد تلك الجدران ، واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمن الاقمشة ، كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية ، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة .. » لنتمثل ونر ونسمع ... ولننصف .

كم كانت عذبة هاتيك الصدمة على قلب تلك الصبية التي كانت تزهو بفتنتها ، وتعتقد اعتقاداً صميمياً بان كل ما وهبها الخالق من محاسن ومفاتيح وعقل وذكاء ، كفيلاً ، ليس بان يولد الاعجاب ويوقظ العاطفة وحسب ، بل بان يستبقي مدى الحياة من تكون شدته اليها عاطفة حب ووله وشعور اعجاب وتقدير .
واننا لنذكر حادثاً يبدو تافهاً بجد ذاته ، الا انه ذو مغزى ، اورده جورج باز في مجلة « صوت المرأة » بسلسلته « كيف بدأت ادبياتنا الكتابة » يدل دلالة واضحة على روحية سلمى واسراقها النفسي في المرحلة التي اقبلت فيها على عهد انشاء الاسرة ، قال :

« تولت اشغال منزلي بنفسها في اسبوع عرسها . واعتمدت درس طب الاسنان لمعاونة زوجها الطبيب .

« فكتبت مقالا موجزاً عنها . وغلظت في اطلاعها عليه قبل النشر ، فابت علي نشره بالخاح . وجاوبتني بما رويته في مجلتي ، جزء نوار سنة ١٩١٢ :
« اشغالي المنزلية واجب متحم . لا فضل لي به . فالنملة ، على صغرها تبني بيتها وتلاؤه حبوباً »

ليت الامور ، في سياقها الطويل شاءت لك ان تستعري في بناء بيتك وهيكل حبيك يا سلمى ! .

على ان اصدقاء الزوجين ما لبثوا ان لاحظوا توتراً في علاقاتها وشيئاً من الجفاء في النبوة ساعة يخاطب واحدهما الاخر . فقد كان يكفيك ان تقول سلمى « ابيض » حتى يقول فريد « اسود » ، وبلغ الجفاء في نفس فريد مبلغاً سمح لنفسه

ان يقول لزوجته امام اصدقاء ، في نقاش حول وضع المرأة والرجل الاجتماعي :

ان الذي ينبغي يجب ان يكون له الرأي الاول في البيت !
لا شك في ان السهم كان مؤملاً وجارحاً ، ومن شأنه ان يغضب ويشير من
تحسست معنى الكرامة الانسانية باعق وجوها .

من الطبيعي جداً ، بل من منطق الامور ، ان يكون صاحب الرأي الاول
والارادة المسيطرة في البيت ذلك الذي ينبغي ويعمل . ولكن ، متى تم لرفيقين ان
يخلقاً بينهما جواً من اللفة والمحبة ، وان ينسجا حول نفسيهما وروحيهما روابط
دقيقة من المشاعر الصافية ترسخ في اعماق كيانهما فتوحدهما وتؤلف بينهما حتى
ليكادا يصبحان شخصاً واحداً ؟ ومتى يتم لرفيقين مثل هذه الروابط العميقة حين
يلجأ واحدهما الى تمدين الآخر بانه يعيله وانه على ذلك هو صاحب الرأي الاول
والحق في السيطرة ؟

بل كيف يتم ذلك اذا كان واحدهما يفرق بين حقه وبين حق رفيقه ؟
أو تكون مثل هذه الرفقة الا هيكلًا مزيفاً لاسرة ليس فيها من مقوماتها
الا الشكليات ؟

اعود فاشير هنا الى الناحية العلمية من الموضوع ، وهي الناحية التي تقول بان
الحق في السيطرة والتوجيه يعود حتماً الى من يؤمن حاجات الاسرة ويعملها ،
فاقول : انها حقيقة ثابتة لا مفر من الاعتراف بها . وعلى هذا فان كل محاولة لمساواة
المرأة بالرجل ولتحررها من سيطرته ، تظل وهماً وخرافة ما دام هو معيها ،
وان هذا التحرر وتلك المساواة لم يصبحا في بقعة من بقاع الدنيا واقعاً حقيقياً الا
بعد ان نزلت النساء الى ميدان العمل ، واستقلن اقتصادياً ولم يبقن عباً على الرجل .
ولعل هذه الحقيقة راودت نفس سلمى ودفعتها الى ان تعمل وتدفع عنها
عبء تلك المنة .

ولكن ، أكانت سلمى فكرت في دفع عبء منة زوجها لو لم ينوه هو به
ويعلمها بمثل ذلك الجفاء ؟

كثيرات هن الزوجات اللواتي لم تتح لهن الظروف الاسهام في اعادة الاسرة ،
فهل وجب حتما عليهن في مثل هذه الحال ان يشعرن بعبء منة تأتيهن من
ازواجهن ؟ كلا ! كما انه لا يجوز ان يشير الرجل الى ذلك ولا في حال من
الاحوال ، فالمرأة كائن بشري له كرامته وله حسه بهذه الكرامة . ولا ننسى
ما تقوم به الزوجة من اعباء في تنظيم حياة الاسرة ، اعباء ليست هي في الهامش
من الاعمال ، بل هي تستدعي الكثير من الدقة والفهم . وما اجمل ما تخلقه
الزوجات المدركات المحبات من جو أليف هانئ يستمتع فيه الرجل بنعيم الاسرة
السعيدة ، فهل يجوز بعد ذلك ان تحس بانها مدينة بشيء لرجلها ؟

على اني ارى فوق ذلك ان اشتراك المرأة في اعادة الاسرة من الامور التي
تقوي شخصيتها وتجعلها عضواً مفيداً في المجتمع على نطاق اوسع من نطاق البيت .
فلا بأس من ان تخوض معركة الحياة الى جانب الرجل ... لاسيما وان وسائل
العيش الحديثة قد وفرت الكثير من الوقت لدى ربات الاسر ، بحيث انه لم يعد
هنالك تضارب خطير بين مهامهن كربات اسر وبين مهامهن كعضوات عاملات
في حقل المجتمع .. واضيف الى وسائل العيش الحديثة التنظيم الاجتماعي الذي أمن
دور الحضانة ومؤسسات رعاية الاطفال على نطاق واسع في المجتمعات المتطورة ،
والتي نرجو ان تؤمنها السلطات عندنا .

واذا قيل ان اسهام المرأة في الشؤون العامة من شأنه ان يقوض بنيان الاسرة ،
فاجيب انه العكس ، اذ من شأنه ان يزيد هذا البنيان رسوخاً ، لانه يقرب بين
طبيعتي الزوجين ، فلا يعود الزوج يحس بانه يعيل فيعزل ، ولا تعود الزوجة تحس
بانها عالة فتعزل ، ويستولي عليها مركب نقص كثيراً ما يوقعها في السخف ، ويجعل
معاشرتها امراً غير مستحب . ولنضف الى ذلك ما يجنيه الوطن من تضاعف
الانتاج بالاستفادة من طاقة نصف سكانه .

الا ان سلمى ما تبومت من واقعها كامرأة ، وما اتيح لها ان تحس هـ هذا الواقع بوضوح الا في ايام زواجها ، فحسبته مسألة قوة في الشخصية او ضعف فيها ، وشأت ان تدلل على قوة شخصيتها بفرضها في بيتها ، مما جعل فريد كساب يلتفت ، بالطبع ، وهو صاحب الشخصية القوية ايضا ، ويتمسك بكل دقيقة من دقائق حقه بالسيطرة والتحكم . وهكذا اصبح هذا البيت التمس ميدانا لتنافس شخصيتين قويتين على السيطرة وفرض الارادة .

في هذا الجو المتوتر ، المليء بالمشاحنات ، دخل على مسرح حياتهما صديق للزوج ، عرفه الناس خطيباً بليغاً ومتحدثاً جذاباً ، هو الاب يوسف اسطفان .

فاخذ التبعاد الروحي يشتد ، والكبت النفسي يضرر الجفاء وربما الحقد ، حتى لا يصبح جو بيتهما مثقلاً بالضغينة وحب التجريح ، ينتقد الزوج زوجته في كل ما تكتب وتقول ، وتشترط الزوجة ان لا يحضر الزوج الحفلات التي تدعى للخطابة فيها .

ظل الزوجان على هذا النحو من الجفاء ، لا يحاول واحدهما ان يتفهم روحية رفيقه ، او ان يزيل ما علق في ذهنه من سوء فهم لبعض البوادر او التصرفات ، كما لا يسعى الى مغفرة الاساءات الطائشة ، الى ان اتى يوم ، اثر عاصفة هوجاء اطاحت بصرانتهما ، وفجرت مواضع الكبت من نفسيهما ، فاسمع كل منهما رفيقه ما لم يستطع ان ينساه يعد مرور العاصفة .

يومذاك اتخذت سلمى خطوة خطيرة ، كان من شأنها ان زعزعت كيان البيت وهدمت اركانه ، ذلك انها تركت منزلها الزوجي وذهبت لاحدى شقيقاتها .

لم يفد تدخل الاصدقاء باستثارة شعور الصفيح والتساهل في نفسيهما . ولكم ابدى اصدقاؤهما من الدهشة فيما هم يتحدثون كلا منهما ، اذ اتضح لهما انه لا توجد في الواقع اسباب جوهرية تصح ان تكون سبباً لافتراقهما : انها الكبرىاء وانه العناد ...

عفو سلمى ، او عفو فريد ، لا ادري . ولكن ، اصحيح ان الاساءة الى
كبرياء الانسان هفوة ليست جديرة بان تغضب ؟
ذهبت مساعي الاصدقاء سدى .
ومما زاد التوتر بينهما سفرها ، بعد ان فقدت طفلها ، الى مرسين بزيارة
لشقيقتها .

طال الاخذ والرد في قضيتهما . فمن تكليف المجمع الانطاكي جورج باز ايجاد
سبب للطلاق ، اذ لم يكن هنالك قانون للاحوال الشخصية باللغة العربية للطائفة
الارثوذكسية ، بل كان باليونانية يومذاك ، الى تكليف المطران رفائيل غر تسوية
الناحية المالية بين الزوجين ، - ونعرف انه قد فرض على الزوج تقديم مبلغ ثلاثماية
ليرة عثمانية - الى محاولة الزعم ان سلمى امضت خمسة اعوام خارج البيت الزوجي
لم تحصل خلالها بفريد البتة ، تسهيلا لاقرار الطلاق .

الا ان والد فريد ابي ذلك ولم يكن قد فقد الامل باعادة العلاقات بين
ابنه وزوجته .

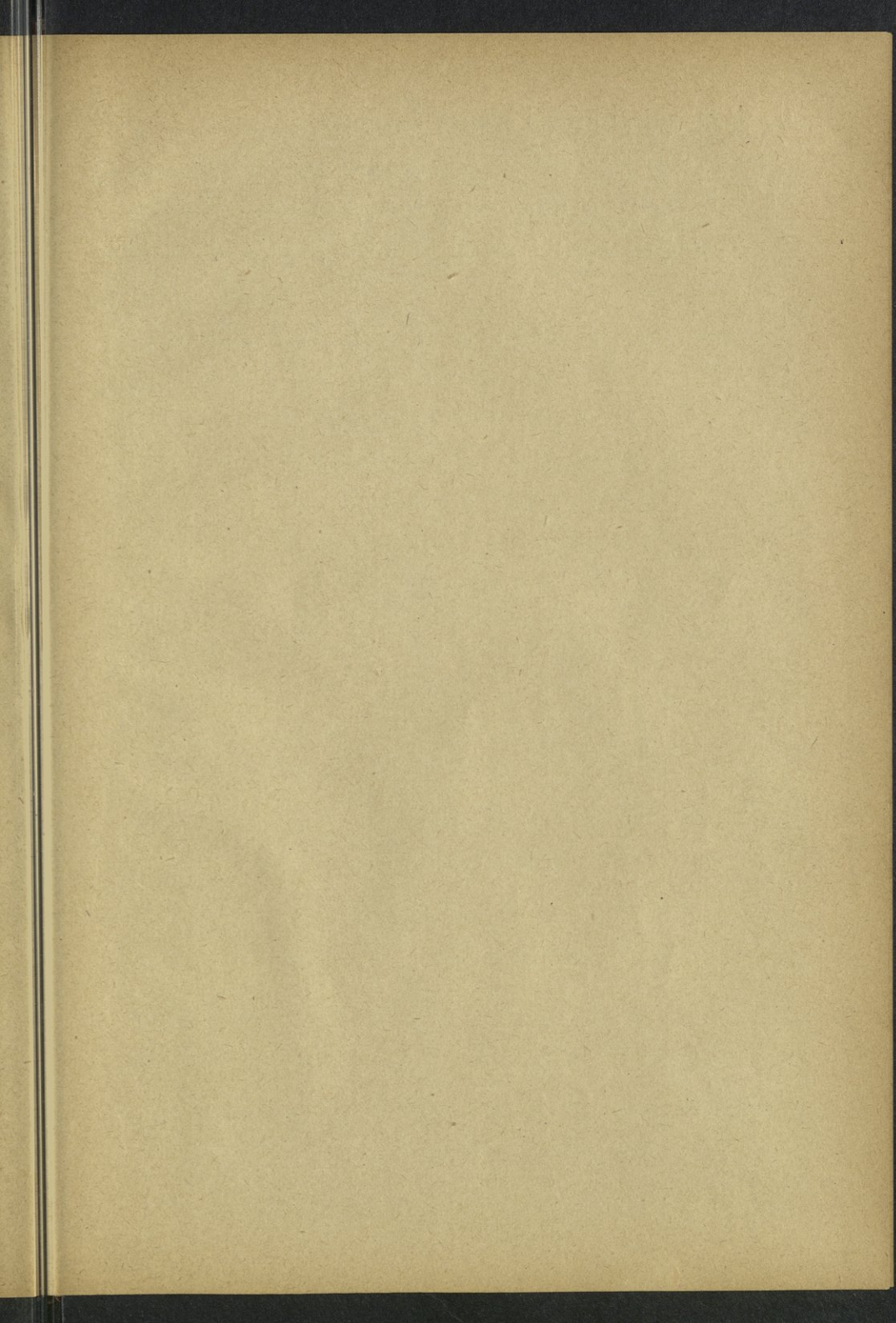
ومما تجدر الاشارة اليه هنا هي تلك الانوثة العاقلة الرفيعة التهذيب التي استبقت
سلمى الصديقة المحبة ، بل النسبية القريبة لآل زوجها بعد الفراق . فما آل الصايغ ،
باقرب واعز واحب على قلبها الوفي من آل كساب الوافدين عليها من فلسطين
والذاهبة اليهم الى فلسطين . احبتهم واحبوها وظلت تحبهم وظلوا يحبونها .

ولكن فريداً كان قاسياً ومتصلباً ، وقد اظهر هذه القساوة التي لا يحمد عليها
في احد الاجتماعات التي ضمه وسلمى لتسوية الناحية المالية بينهما .

عرفنا ان فريداً قبل بما فرض عليه من مبلغ يقدمه لزوجته كنفقة لها ولابنتها
وان هذا المبلغ حدد بثلاثماية ليرة عثمانية .

فاجتمعت سلمى بفريد لاخذ هذا المبلغ . ولكنه فاجأها برفضه دفعه مرة
واحدة ، بل اقساطاً شهرية تنفقها على نفسها وعلى ابنته .

فراحت تذرف الدموع بتحرق ولوعة، مطلعة فريداً على انها كانت تنوي شراء
بيت صغير يؤويها وصغيرتها فتستقر وتطمئن ، ولكنه بقي على موقفه .
وبعد حين ، وبعد ان امضى صيفاً في مجمدون وفي جوار اسرة، يقال انه كان
قد فكر بالزواج من احدى بناتها ، سافر الى مصر ، الى حيث تقطن هذه الاسرة ،
بعد ان نقل عيادته اليها .
وهكذا انقطع كل امل بلم الشتات . وهكذا ظل زواج سامى امنية
لم تتحقق .



امومتها فراغ

« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شليت ... قبل ان ولدت ... عندما تمللت
لاول مرة قرب فؤادي ... وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي ... »
يا لعذوبة هذا الجرس ترسله سلمى ترنيمة الحياة ، يدهدها ديبها وهو يتحمل
لاول مرة قرب فؤادها !

ويا لبهاء وما يشيع في النفس من غبطة سماوية ، هي وحدها ما يربط الانسان بما
ارتفع وتسامي من غاية هذا الوجود : غاية استمرار الحياة... يا لبهاء ما يشيع في
النفس من تلك الغبطة السماوية ساعة تحس بهذا الدبيب يتمشى في حناياها !
ويا لتلك النشوة المتألهة يحسها هذا الانسان الطفل الذي يبقى في نفس كل ام
وقلب كل أب ، ساعة يحس انه خلق منه وفيه هو ، من جسده ودمه وعروقه ، حياة
تدب وتمشي ، تحس وتعقل !

ويا لسعادة البيت الذي ترفل اجوائه بنعمى الامومة ونشوة الابوة !
بل يا لهناء الرفيقين اللذين تشدهما بعضها الى بعض الثقة والحبة ، ويجمعها الوفاء
فيستمتعان بهذه النعمى في « البيت » الهانئ الاليف . فهل اعطي لسلمى ان تستمتع
بهذه السعادة ؟

الامومة نعمة ومنة من الخالق !
وفي الامومة الشطر الاكبر من ائوثة المرأة ، بل فيها التحقيق الاكبر لهذه
الائوثة .

ولكن ، هل للمرأة ان تتحسس هذه الانوثة وتلك الامومة بكامل نفجرهما في نفسها اذا ما خلا جوها من رفيقها في تحقيقها ؟
فيا لجور القدر الذي شاء لسلمى تلك الحياة المبتورة !

شاء لها انوثة ترف بجناح في مدى التوق الى الامومة الهائلة المطمئنة ، وتخفض جناحاً مثقلاً باعباء والآلام والعص في وحشة والفراغ والظماً الى الرفيق العطوف !
ويا لالتياح امومتها بصيها الوحيد تحتطفه المنون وهو بعد في احضانها ، لم تره يدب ولا يشب ، فيما هي تسقيه مذوب قلبها ... وفيما هي تتسائل واجلة ، وصغيرها بين ذراعيها ، عما اذا كان ممكناً ان تنكب امهات بفجعة فقدان صغارهن فيستطعن الرضوخ لمثل هذه الفجعة ، او سلوان صغار امتصوا مذوب قلوبهن ...

فما هي كذلك يشاء لها القدر القاسي ان تقف امام جثة صغيرها متفجعة ذاهلة ، تفتش عن أثر لتلك الابتسامة الملائكية التي كانت تسيع على هذا الوجه الهامد البارد .
حدث ذلك في غزير ، بجوار الميتم الذي ساهمت في انشائه لايواء الايتام البؤساء الذين حرموا عنان البيت واجنحة الابوة .

هزت المفاجعة كيائها ولم تستطع بعدها ان تظل في اجواء ضمتها وصغيرها يوم كان يزفرق على ذراعيها ، فهربت من آلامها وذكرياتها الموحجة ، الى مرسين ، في تركيا ، الى حيث احدى شقيقاتها . وكان ذلك سبباً في ازدياد التوتر بينهما وبين زوجها .

اما ابنتها « عائدة » وهي التي توجهت منها بتلك الترنيمة العذبة الايقاع :
« يا حلاوتك عندما دببت ، وعندما شبيت ... بل قبل ان ولدت ... عندما تملمت لأول مرة قرب فؤادي ... وعندما كنت استقيمك مذوب قلبي ... »
اما ابنتها الوحيدة هذه ، فقد ذاق من تمزيق النفس والقلب ، بين شتات انسلخ والديها وتنازعها ، ما جعل منها الابنة المشتتة الممزقة فكانت لايوبها كليهما ، ولم تكن لاحدهما .

واما سلمى فعاشت في خوف دائم من ان يسلمخوا ابنتها عن قلبها ، اذ مسامر

فريد على المدرسة يوماً ليرى عائدة او يأخذها في نزهة ، وطال وقت ارجاعها الا
وهلع قلب سلمى وتأكلتها الوسوس وصعقها « اليقين » بان ابتها طارت ، بل
انترعت من بين يديها تشفياً وانتقاماً .

وما ان شبت عائدة ووعت واقع ابوها ، حتى بدأت مساعيها و « ارشاداتها »
لاعادة الوئام والمحبة الى القلبين المتنافرين . فتوهمت سلمى ان وحيدتها التي ارادتها
نجيبتها وشريكة اشجانها ، تقاضيا اذ تقلب وتلاحظ وتناقش فيما هي تستعيد الحوادث
وتسترد الاسباب ... فجفلت نفسها من وحيدتها ، وانكشمت على ذاتها ، وبألوعة
الفراغ الذي احسسته الامومة !

وما كتبت عائدة مرة لوالدها او تلقت منه اية رسالة ، الا واحست سلمى
بالوسوس تقلقها وتغمر نفسها حول محبة ابتها لها حتى صارت تخشى ان يتجه قلب
الفتاة نحو ابوها ، وصارت تعيش في خوف دائم من ان تصارحها يوماً بروغبتها في
موافاة والدها ...

وهكذا اصبحت الام الواجلة تسعى الى الاحتفاظ بابنتها بشتى المغريات
المصطنعة ، وقد اقول الزائفة ، وهي التي ودت لو تعيش مشاعرها الصافية في شتى مجالاتها ،
على براءتها وعفويتها الصادقة .

وما عسى ان تكون المغريات التي تستهوي فتاة في عمر البرعمة بتفتحها على
الدنيا ؟

اليست هي الحياة المسورة الراعدة ؟ اليست هي الفسطين الحلوة الانيقة ؟ اليست
هي زمر الرقيقات في حلقات اللهو والاستقبالات الحافلة ؟

فامر توفير هذه الامكانات اذن شيء اساسي جوهرى بالنسبة الى القضية الكبرى
في حياة هذه الام ، قضية استبقاء ابتها لها .

وسلمى ! انى لها ان توفر ذلك .. ؟ وهل عرف الناس كيف كانت تعيش
سلمى ؟ وهل عرفوا كم قاست من العذاب وتحملت من الحرمان ؟ هل عرف الناس
كيف عاشت تلك التي كررت مراراً ان الشكوى لغير الله ذل ؟

اجل ان الشكوى لغير الله ذل ، وسلمى اضطرت الى الشكوى لغير الله !
فماذا لاقت ؟ !

يعلم الله وحده ما لاقت !
ويعلم الكثيرون من اصدقاءها كم لاقت منهم « التقدير لشجاعتهما » و « الاعجاب
بصبرها » !

ولأقلمها كلمة صريحة لاولئك « المقدرين » سلمى و « المشفقين » على سلمى وعلى
امثال سلمى : ان من كانت في وضع هذه الاديبة ، وهي التي وهبت امتها ومجتمعها
ما استطاعت ان تنهبها من طاقتها وجهدها ، لا ينظر اليها نظرة اسفاق ، ولا يجوز
ان يتباهى الناس بانهم « اهتموا بامورها » معقدين ذلك منهم منة وتكرما ...
بينما من واجب كل فرد ، ولا سيما اولئك القيمين على مصائر الامور ، ان يؤدوا
دينياً عليهم فيفوا سلمى ما وهبتهم ، كمجتمع ، من نفسها ودماعها ونشاطها ! اجل
ليفوها لا ليتصدقوا عليها !

اقول ذلك وانا اعلم ما قاسته هذه النفس - المجتمعية - هذه المواطنة الام ،
الادبية ، الخطيبة ، المعلمة الموجهة ، من آلام وجراح في كرامتها بما « كوفئت »
به من جعود ولا مبالاة ... والسلطات ايضا في هذا الشمول !

فكيف يجوز ان تعيش اديبة كسلمى صايغ عيشة الحرمان والتقيير ، عيشة تسنى
في ليلها « لنجوم » دارت في فلكها بجاد الدرهم ، قتمت انها « تشع » على تلك
المنارة عطاء مهذارا ...

ولكم حرم العربية وضع سلمى هذا من نتاج ربما اتى في اعلى المراتب لو
استطاعت سلمى ان تنصرف الى الادب ، بدلا من ان تأكل اوراق كتبها خبزاً ،
وحروف عبقريتها اداما ، وبدلا من ان ترتبط معلمة ساعات وساعات في النهار ،
توهق بها نفسيتها وتذيب فيها حشاشتها لتحفظ بابلتها وتهيء لها جواً يستهويها فلا
ترحل عنها الى ابها ، الى حيث الرغد والرفاه .

واني لاوفر على القارئ فلا اصف الحالات التي مرت بها سلمى ، ولا اتبسط

بتحليل تلك العقدة النفسية التي عانتها بالنسبة لبيتها والتي جعلتها تعيش في خوف دائم من ان تفقدها .

ذاك هو الفراغ النفسي الذي كانت تدور فيه امومة سلمى .
وفي ذات يوم خيل اليها ان ما خشيته اياما تحقق في لحظة ، اذ قالت عائدة لامها انها قررت زيارة والدها في الاسكندرية ...

هلع قلبها واحست بالفراغ الموحش يحوطها من كل جانب ، وتركت دمعين عاجزين تتدحرجان على خديها وصمتت ...

سافرت عائدة .. وافقرت دنيا البيت من طيفها الزاهي الحبيب . وفي تلك الظلمة الموحشة طقت خيوط من الياف عيناها فكاد يطفأ نور تلك العين .

ولنقرأ الان بعض مقاطع من رسالة بعثت بها الابنة الغائبة الى امها الوحيدة المستوحشة فننصف عائدة ساعة نعرف الدافع الذي جعلها تترك والدها وتسافر لموافاة ابوها :

« امي الحبيبة !

« قد يأتي يوم يعرف فيه الناس كم احببتك ولماذا كنت بعيدة عنك في وحشتك وآلامك (لكم يؤلمني يا امي ان افكر بذلك) .. سيعرف الناس انهم ، اذ كانوا هم يظلموني ويتهمونني بالقسوة عليك كنت اعطي الدليل على محبتي لك وحنيني الى ابتسامتك منك سعيدة هائلة ...

« امي ... اني اقسم بك - الست انت اعز مخلوق على قلبي ؟ - اني اقسم بك انه ساعة علم والدي بمحادث عينك راح يبكي كالطفل امامي ، فما اشد ما يتألم هذا الرجل !

« امي ... اسمعي توسلات ابنتك البعيدة ، ابنتك التي ضحيت من اجلها بكل شيء ، واغفري فانتي التي عرفت دوماً كيف تغفرين ...

اغفري الان ايضاً لرجل يعترف باخطائه ... اغفري لرجل هو زوجك واب
ابنتك ... اغفري له لانه شقي هو الاخر !
« امي ... لقد كنت شقية انا ايضاً ... »

ولكم تألمت وتعتست بصمت ، وكنت اخفي عنك آلامي لاني كنت احس
بانك تضحين بكل شيء من اجلي ... فلم يكن ذلك المرح الذي كنت اظهره
لك الا تمثيلاً وتصنعاً ... والان ، لقد صممت على ان اكشف النقاب عن حقيقي
فاقول لك صراحة بانني شقية ومعذبة وان سبب شقائي هو افتراقكما ...
« اني اتألم من اجلك ... اني اخاف عندما افكر بشيخوختك الموحشة !

« اني احسد نسيباتي ... احسد صديقاتي حين اراهن تظللن اجنحة آبائهن
وامهاتهن ... اني اذ اشاهد صديقاتي يرفلن بحو المحبة والالفة التي تربط بين والديهن
احس بشيء لا استطيع التعبير عنه ... »

« وانا ، انا التي اسعدها القدر بابوين هما خير الوالدين ، احرم عطفها واحرم
التمتع بحو حياة عائلية هائلة توفل اجواؤها بنعمى المحبة والالفة ؟ »

« امي ... اعترف لك الآن بانني بكيت ساعات بصمت ووحشة اذ كنت
اوي الى سريري في جو بيتنا الموحش . »

« اني اشعر اليوم بوضوح انه كان باستطاعتي ان انعم بسعادة الحياة العائلية
منذ زمن لو لم يعني لهو الطفولة العاشمة ... »

« وها انا احاول الان ان اعوض عن سخفي وغباوتي ... واني لافعل ذلك
بدافع من صميم قلبي . »

« انا لا اطمع بثروة ولا بجاه ... اني لا اتوق الى شيء من ذلك ... »

« ان امنيتي الوحيدة هي ان اراك الى جنبي سعيدين مجتمعين ... ان سعادتني

ليست في مبادئ الحياة ، انها في شيء اثنى واعظم من ذلك : انها في الفتحة ومحبتكما ووجودكما هاتين مطمئنين الى قرب ابنتكما .

« لكل شيء نهاية ... »

« فليحل الوئام محل الكره والحقد ... ففي سبيل السعادة التي تنتظرك انسي الماضي ، وكفرا انما الاثنين في سبيل سعادة ابنتكما .. »

لقد اعطيني كل الدلائل على محبتك لي خلال سبعة عشر عاماً ... فاعطيني الدليل الاكبر اليوم !

« انا ادرك وضعك ... وافهم ان تترددي ... لو كنت مكانك لترددت ايضاً : فما اكثر ما تأملت ، وما اكثر ما بكيت ، ولم شقيت وتحملت ... »

« ولكن صدقيني يا حبيبتي ، صدقي ان ابي قد تغير كثيراً ... لقد فعلت فيه الالام والخبر ايضاً ، لقد تألم هو الآخر ... فهو وحيد مستوحش ايضاً ولا تؤنس هذه الوحشة ابنته — لا ادري اذا كان ذلك من حسن حظه او من سوء طالع — لو لم اكن متأكدة مما اقوله لما كتبت لك ، وثقي باني لا افعل شيئاً يشقيك حتى وان كان ذلك على حساب سعادي . »

« لقد اعترف بانه هو الخطيء ... ولكن لننصفه .. ألم تكونا سابين ، عصبي المزاج ، سريع التاثر ... كل ذلك تغير ... ثم اني هنا ، بينكما ... فوجودي معكما يزيل كل ضغينة ... ساكون لكما الملاك يرف بجناحي حبه وحنانه فلا مجال لان يشند جوكما بعد اليوم بالضغينة والحقد ... فباستطاعتكما ان تتمتعاً بكثير من السعادة بعد تلك السنوات الطويلة من الشقاء والوحشة ... »

« تطلعا الى المستقبل بعين الرضى والتفاؤل ، وكونا لهذا المستقبل ، وعيشا من اجله ، ومن اجل عايده وانسيا الماضي ... »

« لقد حدثني كثيراً عنك ... »

« فايقت ان جذوة حبه لك لم تنطفئ يوماً ، رغم ما اذافك اياه من آلام

وشقاء ، وانه بقي يقدرك ويحترمك رغم كل شيء ...
« قال لي : « امك احسن النساء يا عايدة » انه معجب بصفاتك ، بطيب
عنصرك ، بعذوبتك وبعقلك .

« يحكى ان رتيلاء كانت تنسج عنكبوتها ، فهاجت عاصفة سبع مرات
وكانت في كل مرة تمزق ما نسجته بصبر واثابة ... الا ان الرتيلاء لم تيأس بل ظلت
تعيد المحاولة رغم معاندة عناصر الطبيعة الهائجة ، حتى رآف الله بها وبصبرها فهدأت
العاصفة واشرق على الدنيا ضياء شمس دافئة مما لبثت بعدها الرتيلاء ان
نسيجها — بيتها ... فلماذا لا نقمدي بالرتيلاء يا امي ... لماذا لا ؟ لماذا ابقى وتبقين
ويبقى ابي بدون « بيت » ولو من عنكبوت ؟ فاعيدي المحاولة ، انكما طيبا
القلب ... وها ان الله يرسل لكما شعاعاً من شمس دافئة ، انه ارسلني لاجمعكما
(ان في هذه المقارنة اعتداداً ، اليس كذلك يا بما ؟) وهلا اتحتمالي ان اقول يوماً
باعتزاز : لقد جمعتها انا ؟

انا واثقة من انكما ستكونان سعيدين ، وستكونين انت ملكة « البيت
الهانيء » واكون انا اسعد مخلوقات الله ...

عائدة

ان من هذه المقاطع ما يغني عن التبسط في وصف جو حياة سلمى في امومتها
وعائدة في بنوتها .

لم يشأ القدر ان تظفر الابنة بما تاقث اليه بكل ما في نفسها من شوق الى جو
البيت الهانيء والى ملء هذا الفراغ الموحش في جو ذلك البيت .

... وهنا اطل على البيت المقفر فتى يتدفق حيوية وشباباً ، ترخر نفسه بشاعرية
يرسلها ابياتها ما لبث الناس ان رمقوها بالنظرة الرانية الى الشعر ، هو المحامي
المتدرج صلاح لبكي .

اتى الشاعر صلاح لبكي بيت الادبية سلمى صايغ تشده اليها رابطة الادب .

والفكر ، وظرف الندوة الماتعة التي كانت سلمى تعرف كيف تحييه اذ تحياه ...
وما لبثت ان اشتدت رابطة الاعجاب والتقدير المتبادل بين الادبية والشاعر الفتى ...

اما الفتاة فقد نظرت اول الامر الى هذا الشاعر نظرتها الى كل من الفت ان
تراهم في جو امها من ادباء وكتاب ومفكرين ، اعني انها اعتبرته من الحلقات التي
تعني امها ولم تكن في وقت من الاوقات لتعنيها هي في شيء . ولربما كان هذا
الوضع من الاسباب التي جعلت عايدته تحس باكثر واشد توهجاً ذلك التوق الى
حياة الالفة في جو عائلي لا مجال فيه لتعيين اجواء خاصة لكل فرد منها اذ البيت
جو جميع افراده على السواء .

لم تنظر الفتاة اول الامر الى هذا الشاعر نظرة خاصة شأنها ، كما قلنا ، في كل
مرة بالنسبة الى كل جميع من الفت ان تراهم في جو امها .

الا ان شبابه الطلق المتوقد ، وقوته الطرية المتشوقة ما لبث ان صادفها انجذابا
في نفس الفتاة نحوه ، فلم تكن لتتفر او تبتعد الى غرفتها ساعة يقبل ، بل على العكس ،
اصبحت تنتظر تلك الزيارات وتمناها ، بل اكثر من هذا كله ، فانها كانت
تستشير المتحدث عنه مع امها في ساعات النهار وتحاول ان تتأكد منها عما اذا كان
سيأتي في المساء ... ذلك الصوت الموسيقي ذو الغنة البعيدة ...

فلاحظت الام هذا الانفتاح في نفس ابنتها على شخصية الفتى الشاعر ، كما لاحظ
الشاعر نفسه التماعات عينها الخضراوين الجميلتين ساعة يقبل على البيت الموحش ،
ولاحظ الى ذلك ان لهايتين العينين المعبرتين شأننا بعيد المدى ، عميق الاثر في نفسه
هو اذ انه ما كانت خطواته توصله الى قرب مدخل البيت حتى يدفعه التوثب نحو
الباب وفي نفسه توق الى ان تكون المستقبل هي دون سواها .

لاحظت الام هذا وذاك ... ومن يدري ؟ لعل شعورها الصميمي بالحاجة الى
رجل في جو حياتها هي وابنتها ، ولعل خوفها الدائم من ان ترحل ابنتها هذه عنها
ورغبتها بابقائها قربها ، لعل كل ذلك ادى بسلمى الى ان تفكر بامر زواج ابنتها
من هذا الفتى الذي احبها فتبقيها كليها في بيتها فلا وحشة ولا فراغ ...

ولم يطل الوقت حتى فاتحت عائدة أمها بالأمر . معلنة لها قرار الشاعر وقرارها
بالزواج في اقصر مدة ...

تزوج الشابان وعرف البيت شيئاً من الزهو ، واهلت ارجاؤه بوجود الرجل
الرفيق .

الا ان داء اخر اخذ يفتك بفؤاد سلمى ، ولعلها لم تعلن هـذا الداء يوماً الى
احد ، وقد كتبته بكبرياء وحرقة وألم ، هذا الداء هو داء الغيرة ، الغيرة من
صهرها محتكر ابنتها .

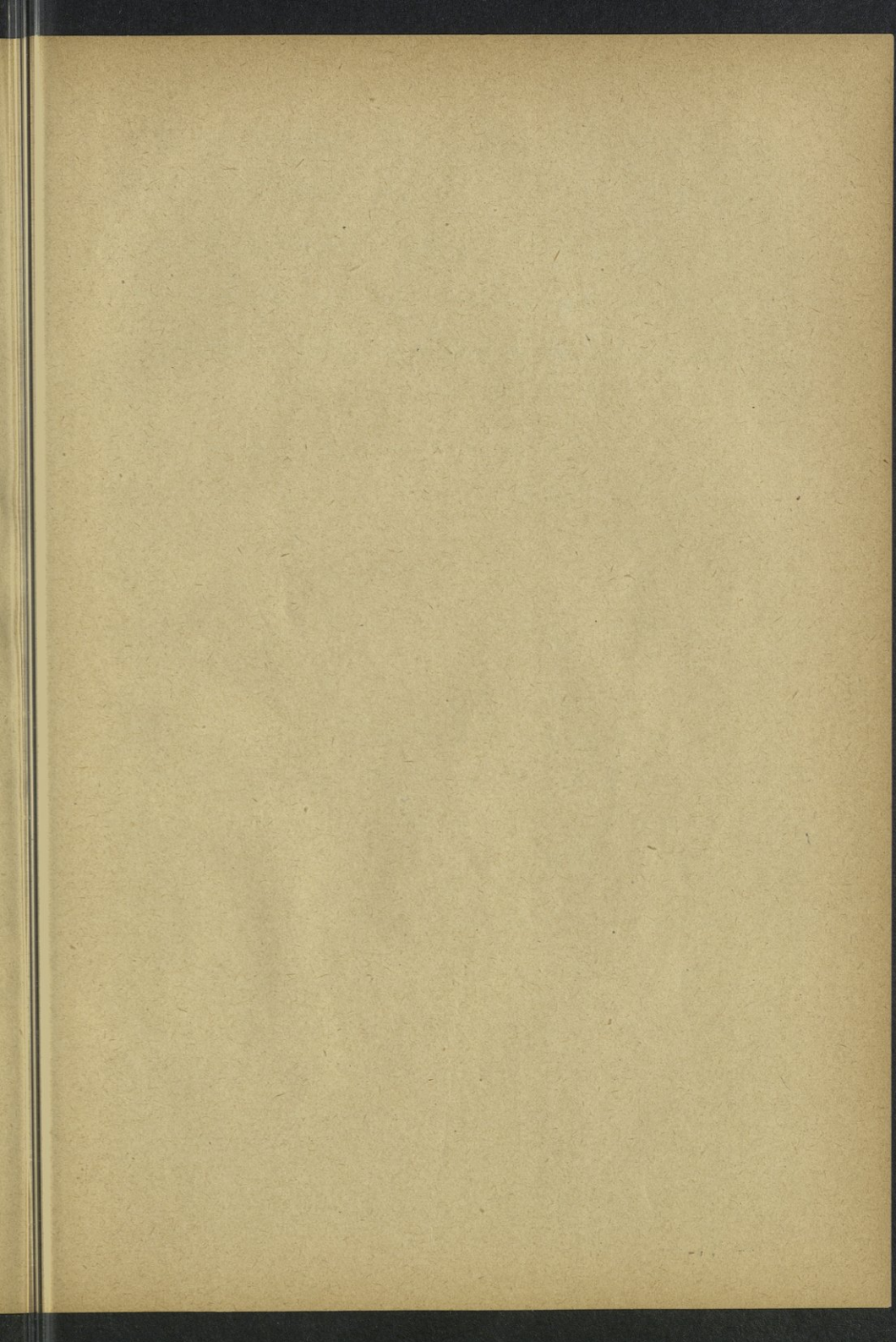
فسلمى التي اعطت الكثير في سبيل ابنتها ، وسلمى التي جعلت من ابنتها محور
حياتها ، لم تستطع ان تدرك ان لابنتها حقاً طبيعياً بالانطلاق في مجالات حياتها
ومستقبلها ... وسلمى عجزت عن خنق شعورها بذلك الداء ، فراحت اعراضه تظهر
فيها بتعبيرات مختلفة غير منسجمة مع الاسباب او الدوافع التي كانت تتذرع بها ..
وعائدة .. ؟

ان عائدة بدورها عجزت عن ان تفهم مبعث ذلك الداء ينهش قلب تلك الام
التي كانت هي مدار كل حياتها . ويا لجور ما قسا هذا الوضع على هاتين الخلوقتين
التي لم تتصارحا يوماً عن حقيقة الدوافع التي كانت تثير واحدهما ولا عن حقيقة
الاثر الذي كانت تتركه الردات في نفس ثانيتهما ...

وهكذا حدث ان قررت سلمى العيش وحدها ، وتركزت الزوجين يعيشان
في جوهما الخاص .

فعاودتها الوحشة ، وعاودها القلق والاعتراب ، واهضت سنين طوالا بين
عملها المرهق في التعليم ، ووحدها القاتلة في فترات خلوها من اخصاء لها ،
فقررت السفر الى البرازيل استشفاء من داء الفراغ الموحش الذي يلفها
ويلازمها ...

دائماً وراء الرجل السند اياً كان ...
وسعيأ اليه وتقميشاً عنه كانت تمضي ...
هرباً من الفراغ الذي خلفه الزوج الهاجر ...
هكذا ارتاحت الى وجوه الاصدقاء عندها — في جوها لتملاً فراغه ...
وهكذا اطمأنت لسكنى صهرها عندها مع ابنتها — في جوها لتملاً
فراغه ...
وهكذا ... الى البرازيل ... سعيأ وراء رجل ...



صداقاتها ظمأً

حفلت حياة سلمى بالخيبات والعقد النفسية : فلا امنية تحققت بحياة زوجية اليقة
متمينة الروابط حلوتها ، ولا امومة مطمئنة هانئة ، مليئة بالتجاوبات العذبة تنشر
الانس في جنبات البيت وتغمر الحياة زهوا واشراقاً ... ففي قلب سلمى فراغ ،
وفي نفسها اغتراب ، وفي فؤادها ظمأ ...

وهي التي قالت في قصتها « الغريبان » على لسان العروس الخائبة التي رأت
رفيقها يبوح بحبه لفتاة يمثل ما باح لها به :

« آه ما ابرد تلك الجدران ، واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمن الاقمشة ، كم
هي غريبة وسط تلك التحف الغالية ، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة ... »
« كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية » هكذا قالت سلمى ...

ان كل رياش الدنيا وزخارفها ، لا تملأ فراغ قلب المرأة ، ولا تؤنس وحشتها ،
اذا هي فقدت دفء عاطفة الحب ، واظلمت دنياها من ضياء ينشره طيف حبيب
امين . والمرأة تنو الى الوحداية في الحب ، فلا يعقل ان تطلق نفسها وتسعد اذا
ما لمست ان رفيقها ، ان ذلك الاله المعبود الذي اشتاقت لقياء طويل ، ودخلت
معه معبد الحب ، يشرك في حبه سواها ، ويسيء الى قدسية الهيكل الذي شيده

لينشأ فيه العائلة، فتقع الكارثة ويحدث النباعد... ويحوط المرأة الفراغ والوحشة!
وهنا يطرح فوراً السؤال الدائم :

اي موقف للمرأة ههنا ؟

الاجوبة كثيرة ومختلفة . وامومة المرأة تطرح هنا ، باعتبارها مهلة المرأة الاساسية ، ومالئة حياتها باعذب العواطف واحلى الاماني . ولكن هناك ، الى جانب الاجوبة المدروسة والحلول المفروضة ، تفاعلاً نفسياً جباراً يبدو انه يتجاوز ما ترسمه تلك الاجوبة من اقدية وخطوط ، فيرسم هو لذاته مجرى طبيعياً ، بشرياً ، نراه يجتذب اطيافاً تسلكه سادرة ... ولعل سامي كانت من هذه الاطياف . فالانوثة ليست امومة وحسب . ان الانوثة بمعنى الامومة وحدها انوثة مبتورة . وما الناحية الاخرى الا استكمالاً لشخصية المرأة الانسان .

ولرب قائل يقول ان عوارض التنوع التي تبدو على بعض الرجال في احوالهم ، هي في طبيعة النفس البشرية ... ترى ، ليست النفس البشرية واحدة في كلا الرجل والمرأة ؟

على ان التساهل والمغفرة ضروريان ، لاسيما متى وجد الاولاد .

فلا شيء يسمح للابوين ان يكسرا قلوب الصغار ، او ان يمزقا نفوسهم وحياتهم بين شتات انساخها وتنافرهما ...

وفي سبيل ذلك ، وفي سبيل وحدة الاسرة ، والحرص على سلامتها ، وجب التساهل ، التساهل المتبادل ، اذ يسمح الرفيق لرفيقه بما سمح به لنفسه فلا يفرض على المرأة ان تعيش مبتورة الشخصية بينما يسمح للرجل بان يكون ذا شخصية مزدوجة ... وتحتدي انه بالامكان تدارك الميول نحو التنوع ، في المرأة وفي الرجل كليهما ، شرط ان يعرفا كيف يبقيان على ذلك الجو العذب من المحبة ، والثقة المتبادلة بينهما ، فينطلقا منه وفيه ، على دنيا من الاحاسيس لها قداستها ولها روعتها ، وفيها من الينابيع ما يروي كل ظمأ ، وفيها من المجالات ما يحيي كل جموح ، لاسيما اذا ما عرف كلاهما كيف تكتشف الينابيع ، واياها تكون المجالات ...

على ان هذه المعرفة الصغرى ، ليست الا انبثاقاً طبيعياً عن المعرفة الكبرى ،
عن الثقافة الحضارية الفكرية الحقيقية الشاملة ، في ذات كل انسان . وما دام
الانسان فقيراً الى هذه الثقافة ، فعبثاً يطلب فيه غنى المناقب .

انها اشارة الى واقع المرأة والاسرة في الغالب ، والى ما يهدد البيت بالانهيار ،
نتيجة كبت تعانيه المرأة صابرة على مضض ، حتى اذا ما انفجر ، كانت العاصفة ،
وكان الخراب ...

فسلمى كانت مستكملة الانوثة ... كانت انوثتها غامرة في انسانية عميقة ، بحيث
انها لم تحقق مرة هذه الانوثة في شتى جوانبها ، الا وكان للقلب شأنه الاكبر
والاعم . وكانت لانوثتها هذه تعبيرات شتى تناولت جميع نواحي حياتها فكان لها
اسلوب في الحياة خاص .

فهي في مستواها الرفيع ، ما كانت سوى ظل الجناح يرف ولا يلمس ، فلا
الفضول من شيمتها ، ولا استراق السمع من خصائلها ، ولا النميمة من خصائصها .
اما سلوك الاخرين الشخصي ، مهما ارتسمت حوله علامات التعجب والاستفهام ،
فما كان يوماً من شأنها استقصاؤه ، ولا من مهمتها تفسيره .

والاعتداد ، وكان من حق سلمى الاعتداد ، ما عرف السيل يوماً الى لسانها
او خطوها ، ذلك لان سلمى كانت تدرك ، بنضجها النفسي ، ان في الاعتداد
تحدياً للغير واساءة .

واذا كان للمظهر ان يكون المرأة ، وانه كذلك ، فانه الشاهد لسلمى على
انها كانت من سيدات الانوثة وفناناتها الموهوبات . وما تذوق اللون الذي ورثته
عنها وحيدتها ، الا احدى الظاهرات في مرآة روحها ومسلكتها .

ولكم حرصت سلمى على ان لا يجيء اتقان مظهرها صارخاً مسيئاً الى
الى الوداعة ، متجدياً مقلقا ، فكان دائماً مجموعة من دقائق منسجمة متناغمة ، تخرج
بفن ، هو كل الفن ، صورة لسلمى ، لا يمكن الا ان تلامس القلوب .

وكم كانت لي فترة مائعة ، تلك السويكات التي كنت ازور فيها سلمى ، فاحاط
بروعة ذلك الاطار البسيط المطمئن الزاهي ، الذي كانت تعيش ضمنه ... فهنا الى

حائط من غرفة مكتبها ، لوحة لرسام تناولت ناحية من حياة الانسان تفيض
بخلجات بشرية صادقة ... وهناك اضمامة من ازاهر ، تيه بالوانها ، من فوهة اناء
ظريف ، وضع حيث يجب ان يكون ، بيد سحرية ، لا يمكن الا ان تترك حيث
مرت ، تعبيراً عن فن اصيل في طبيعتها ... وهنالك طرفة من طرائف الابداع ،
وضعت على منضدة صغيرة ، او على رف في الزاوية ... غنى ، غنى ، نعم غنى ...
وليس هناك شيء من ثمين المقتنى ...

وفي غرفتها ، مما كانت توتديه في خلوتها ، كل حلو من كل لون ، فمنه ما بعثر
على السرير ، ومنه ما علق على المشجب ، وفي ذلك كله ، مجموعاً ومتفرقاً ، أداة
اداء لفن سلمى ، في اختيار الالوان والمطرزات ، وفيه ما جعل من تلك الحلوة
الشقراء صورة عن المرأة كل المرأة في حلاوة انوثتها .

تلبست انوثة سلمى انسانيتها ، وتلبست انسانيتها انوثتها ، فاحى البيان ما بين
هاتين الظاهرتين حتى على كل راء رهيف ، لا يدري ايتها سلمى ، فكلاهما ينبوع
وكلاهما مصب ، ونفس سلمى ما بينهما ، زورق بلا شرع ، يمتطي بمجذافيهما تيار
مجرى الحياة .

كانت لكل قلب حبيبة ، ولكل لب قريبة ، فهي حب دافق لا ينضب ،
تضفي على جوها نغمى نداء جاذب كتوم ... ولعلها لم تكن تدري ان نافذتي
نفسها ناظرها ، كانتا تفتحان للرائي ، مطلات على اناقة الروح ، وغنجها ، وسحرها ،
في الحر الطليق البريء من ملاعبها .

كانت جمالا كلها ، ولكم جنى الجمال على الحسان ...
وكانت حباً كلها ، ولطالما اسىء فهم الحب في انسان ...

انها تلك المخلوقة ، تنبض احساساً وتفيض رقة وجمالاً ، كلها عطاء وفيض
واغداق . انها هذه الانوثة الغنية الغامرة تقسو عليها الحياة ، فلا تسعدها بزواجها
ولا بامومتها ، ولا تؤنس وحشتها بروابط الالفة الصافية الصادقة . فهل كان
طبيعياً ان تعيش في فراغ وفي اغتراب ؟

كلا ، لم يكن ذلك طبيعياً !
وهكذا كانت لسلمى علاقات ...

وايماء وتلميحاً ، فيها ما يغني عن الدلالة والتصريح ذكرت لنا سلمى صداقاتها وموداتها وعلاقاتها ... وقالت لنا حياتها الخاصة بما هو ابلغ من القول ، انها ما صادقت الا الموهوبين ، وما اخلصت الا للمتفوقين من ادباء ومفكرين ... فلا ارباب المال ولا سادة القصور ولا اصحاب السلطان ، ممن حاموا حولها ، وجدوا الى قلبها سبيلاً ... ووجده حبيب اسطفان الاديب المعلم فيما كان يلقي عليها دروساً في العربية ... ووجده اديب مظهر فني الشعر وشاعر الفتوة ، فيما كان يستوحى ويغرد ... ووجده امين الرجائي فيما كان يسمعها — كما تقول هي : « مقاطع من الشعر المنشور وقعتها على اوتار عود مسحور ، فحومت فوق دنيانا كجنية من نار ونور » . ووجده فيلكس فارس الذي قالت فيه : « فتح الباب ودخلت القامة الانيقة ، واقبل الفنان الذي اطل منذ احدى وثلاثين سنة من فوق منابر بيروت فاستهوى قلوب الشباب الطريفة ، ودخلت نبراته البيوت ... »

انها لناحية من حياة سلمى ، يجدر بنا ان نشير اليها فلا تبقى طي الكتمان ، مغفلة مهمل ، شأنها في سير الكثيرين من ادباء هذه البلاد ومشاهيرها ... وليس جديداً القول ان ايلاء خصوصيات مشاهير الغرب وادبائه ، هو في اصول البحث عن سيرهم ، ومن اولى ظاهرات عرضها .

... قلنا ان البيت التمس ، بيت سلمى وفريد اصبح ميدانا لتنافس شخصيتيهما القويتين على السيطرة وفرض الارادة ، وانه في هذا الجو المتوتر ، المليء بالمشاحنات ، دخل على مسرح حياتها صديق للزوج ، عرفه الناس خطيباً بليغاً ومتحدثاً جذاباً ، هو الاب يوسف اسطفان .

كان هذا الكاهن الشاب محبوب بلاد المهاجر متقللاً بين عواصمها ، محرراً نشاط الجاليات فيها ، الامر الذي كان يدفع احيانا الى اثارة المشاحنات والخلافات فيها ،

فتناول الصحافة حر كاته واقواله وخطبه التي كان يرتجلها بسهولة وبلاغة بالتعليق
والمناقشة ، فلم يطل الوقت حتى لمع اسمه وذاع صيته فبلغ الوطن .

فكان طبيعياً ان تستقبله الاوساط الادبية بكثير من الاهتمام حين زار
لبنان ، كما كان طبيعياً ان تحس زوجة صديق له قديم فتح بيته لاستقباله ، وهي
الادبية الناشئة ، بصلة روحية تقربها منه وهي التي كانت تعيش في جو جفاء
واغتراب ، الى قرب رفيق انكمش على ذاته وانتفضت رجولته تغضب لكل
بادرة انعتاق ذاتي تبدر عن رفيقته .

ولما كانت سلمى صممت على المضي في ممارسة الادب ، واستهواها هذا الكاهن
المتحرر تحرر كل انسان ، فقد حسبت انها لقيت ما تنشده ادبا في حبيب .

فطلبت منه ان يعطيها دروساً في العربية مما اتاح لها ان تلتقيه في اجوائها .
وازداد الزوج المتباعد ابتعاداً عن زوجته المتباعدة .

ولسنا ندري كم استفادت سلمى عربية من هذا « المعلم » الذي احب ... وكـ
ذا استمرت خلوات « الدروس » بينهما ...

الا ان ما ندرية عن هذا الشاب المتنقل الجواب يوضح لنا كيف كان يستهل
التنقل ويستسيغ الاستبدال ، سهولة انتقاله من موضوع لموضوع ، من منبر
لمنبر ، من بلد الى بلد ... واستساعة البديهييات السطحية في آرائه وبيانه ...

لم يكن عسيراً عليه استبدال سلمى وخلع عهدها ...

ولم يكن غريباً من سلمى تخليها عنه وهجرانه ...

الم بين عليه الامر الذي عراه فيما بعد . من ثوبه الاكليريكي واسمه الكهنوتي ؟
لقد كان الاب يوسف اسطفان ، فاصبح حبيب اسطفان .

... ويعود الفراغ رهيباً راعباً الى جو سلمى ، فيما الصديق يولي ، والزوج

يهجر ، وفيما قبضة الموت تمتد الى صدرها فتسلخ عنه وليدها الصبي الوحيد !

ويلاحقها الفراغ ، من بيروت الى مرسين ، لا يرحم ولا يدعها هناك لدى
اختها تسلو خيبتها ولوعاتها ... فتعود من غربتها لتري اغترابها في بيتها يتركز

ويقيم : ففريد يتأهب لمغادرة لبنان الى الاسكندرية ... وكتب عليها ان
تبقى وحدها .

وحدها وحدها ... فعليها ان تعمل لتعيش ، ولها ان تصادق لعلها تحيا او
لعلها تلتعيش .

هنا ، لا يحق للسؤال ان ينهري .

لا يحق التساؤل كيف ارتبطت موظفة في مفوضية الانتداب الفرنسي .
ويبدو طبيعياً انصرافها الكلي الى اجواء الادباء والجمعيات ، حيث حاولت
الانشغال والسلوان .

ويدرك من عانى محاولات الانشغال والسلوان والوظيفة الرتيبة كم تغلق هذه
الحالات على البصيرة نوافذها وكم تطبق على الابصار اجفانها ...

ويدرك المكابد خادة كم حرمت سلمى في تلك الاونة المريرة فرص الانتاج .
وفي اجواء الادباء والجمعيات تلك ، في حلقاتها وسهراتها وحفلاتها ، لم يفارق
سلمى خاطر الاطمئنان الى صديق جناح للارتياح اليه بعض الارتياح !

وارتاحت ورفاء الادب الى بعض الادباء ، في بعض الاحايين بعض الارتياح .
وتقفز هنا الى الخواطر ابتسامة سلمى على سرير الاحتضار لذكرى ، لدن قولي
لها « سافعل ذلك .. ورحمة عمي ! »

وعمي الذي ابتسم الموت على شفتي سلمى لذكراه ، كان لها صديقا ... وكان
لفريد كساب صديقا .

ولكم حاول فيليكس فارس ان يضم بذراعيه صديقيه ، ويعيدهما كما قننى
الاصدقاء وتشهى الاحباء .

الا ان فريداً غاب ... وغدا في الاسكندرية .

واننى لفيلكس ان يلحق به وهو في مشاغله ومهاته ما بين بيروت ودمشق
وحلب - وفصل الاول يومذاك يستدعيه ويستبقيه ...

غاب فريد ، وتمنت سلمى لو لم تكن دمشق ، ولو لم تكن حلب ، لتأنس الى
حبة فيليكس وتعزيته واخلاصه ...

وما ان حط فيصل في بغداد ، وآب فيليكس مستجماً ومصطافاً في المريجات ،
حتى كانت سلمى على مرأى بيروت تقطع تذكرة لها في القطار ...

هناك على شرفة البقاع تلك ، اذكر انني رأيت سلمى لأول مرة ، قبعة كبيرة
ترافقها قبعة صغيرة ، اطلتا من باب القطار على المحطة ، وتلقاهما لفيف من اهلي
يتقدمهم عمي - وعمي ، كما كنت اسمع ، امير المنابر ، وكما كنت ارى ، مارد
يتهدى ...

لمريجات ، كما يعرف ساكنوها ومصطافوها ، خاصتان : ريجها والقمر .

اما الريح ، فكان في طبيعة مستقبلي سلمى . رحب بها مقتلماً قبعتها ، ومرسلاً
شعرها موجة ذهبية ...

واما القمر ، فكانت السهرة الاولى على شرفها عنده ، مصغياً مع السامرين
المتحلقين حولها الى موسيقى حديثها ...

بيد ان سرّاً واحداً في سلمى لم يكشفه الريح ولم يسمعه القمر ... انه آهات
قلبيها الخرساء ، معها عمي وحده ، على دروب الشواغير ...

ولست لابلغ اذا قلت ان الشواغير وفتيان الشواغير قد تأوهوا لدن رأوا
هاتيك الحورية ، وتأنقوا للمصطافة الجديدة ...

يقول عمي اميل ، وهو من صبية ذياك العهد ، انه لولا خوفه من اخيه الاكبر ،
ولولا تهيبه جلال الجمال وكبر المقام ، لما اكتفى بان يدس للادبية الكبيرة التي
احبها دون ان تدري ، وريقة هوى في كتاب مدرسي ، قدمه اليها مرتعشاً لئقرأه ،
وراح ...

اجزم انه لو لم يكن عمي فليكس متزوجاً عامذاك ، لتمنى هو ان يكون
اسلمى ، وقتت هي ان تكون له - رفيقي حياة كلها روح وفكر وبيان .

عاد الاديب المحب الى مقر عمله وزوجته في حلب - وعادت الادبية المحبة الى
مقر عملها ووحدتها في بيروت .

وبيروت بعد الصيف مدار الندوات والدعوات والحفلات ، وملتقى روافد
حياة لبنان تنصب فيه وتتفاعل .

وسكان بيروت بعد الصيف يرون فيها مأواهم ومهواهم ... عائلات من
تقاليدها الالتفاف ، وصداقات من وشائجها المودة ... لذوي الرحم والقربى
فيها بيوت دافئة راضية هائلة ، ولذوي المحبة والالفة فيها زوايا تعاطف وصفاء
ووفاء ...

للسعداء المطمئنين من بنيتها كل هذا .

ولكم وددت سلمى ان تكون منهم .

كم تأوّهت ، وكم تمتت ... وكم تحرقت مع رتاج باب البيت اذ تألم فيه المقتاح
وأن المصراعان ينفتحان على أثاث مهجور وجدران باردة !

... ويشاء القدر الساخر ان يدخل على سلمى هائلاً هذه المرة ، لاجباً معها دور
مأساة الذكريات الحلوة ... ذكريات انفاس العطر في تفتح برعم حبها ، فتحنس ألماً
في ضرسها يذكرها طبيب الاسنان !

ولكن اين هو الطبيب ؟ اين فريد ؟

وكما قادها حسها في السابق الى الاديب الكاتب فريد كساب لتعالج اسنانها
عنده ، هكذا قادها هذه المرة ايضاً الى الاديب الشاعر اديب مظهر .

عيادته في بيته . انها تذكر ذلك . هكذا قال لها يوماً .

وتذكر كم كان كيساً لطيفاً وانيساً ودوداً لحظة التقاها مرة في حفلة ...

وتذكر حرارة يده اذ صافحها مقدراً خطابا القته ...

وتذكر انه شاعر ...

وتذكر انه جميل ...

لم تتألق هذه المرة ولم تتألق ، فغبار السنين على المرأة متراكم ...

ومع ذلك لم يتمالك الشاعر الشاب الجميل ان شهق لدن اطلالة سلمى على عيادته
فجأة . مستجبة !

لقد اطلت على قلبه وعينه ، سيدة هي من آيات الجمال و كواكب المجتمع ،
واسمها من احاديث الاندية وتباهي الصحف ...
— سلامة خرسك يا سيدتي ... وشكراً له .

قالها وتهلت حيويته باسراق الفتوة في ربيعها ، شاعراً حديثه الحان والوان ،
وحركاته نداءات وبيان ...
فابتسمت سلمى ...

وعادت الى دارها ، وقد سكن ذلك الفتى الطيب الشاعر في خرسها المأ ،
وأثار في فؤادها سواكن ... عادت ... وكانت المرأة في استقبال من ارقص
قلبها الالمانى ، فودت ان ترى ما بها من مفاتن ونداءات ، قبل ان تضع من يدها
ازاهر انتزعها الفتى المقتون من اثناء في احدى زوايا العيادة بحركة فيها كل حلاوة
سداجة الفتوة المقتونة البريئة .

لم يدعها جرس الباب تذهب بعيداً في مدى الخواطر المستأنسة من جديد ...
فقد قرع !

من ذا يكون ؟

انه هو !

— عفوا يا سيدتي ، لقد نسيت هذا المنديل عندي ...

وكانت عشية اولى من سنوات تلاحقت فيما بعد ليالى واياما نثر فيها الشاعر
انفاسه لآلىء حب وتغريد ... ونظمت فيها النائرة يناعها عقود هيام وتجديد ...
... وشأن الذين تناصبهم الاقدار كل عدا وتضطفيهم لغدرها وبلواها ، تفجع
سلمى بانطفاء المصباح هذا ، ليعود الى قلبها ليل الفراغ ، اذ تقصف المنية شاعرها ،
إثر صيف نشرهما على روايي لبنان ومطلاته وقادهما الى اودية « المحيثة » الظليلة
ودروها يكسوها اخضرار الصنوبر الوداع الساكن ، تقصف المنية شاعرها غصناً
اخضر كله ازاهر ...

وتبكي البائسة الوهى نفسها اذ تبكي فتاها بدموع اين منها تفجع البواح ،
وبكلمات اين منها آهات الجراح !

وتبكي المجالس لبكائها اذ تقرؤها تقول بفؤاد نهبتها المصيبة ، ولسان تعنته
الفاجعة ، وجفون قرحتها الحارقة :

« ان في صدرك غير ما في الصدور ، وان وراء عينيك غير ما وراء العيون ... »

« انفاس صنين في حنايا نفسك ... »

« ومن بيتي ، وبيتي وكر اسود ... »

« لكم جلست اليك اشكو الحياة وما فيها من دكن وظلام وابتئاس ... »

« اي اديب ! لقد كنت حاملاً ذهبياً جميلاً ، فعشت كما تعيش الاحلام ... »

« الان وقد واروك في حفرة مظلمة خرساء ، هلا زرتني في احلامي وهممت

في قلبي ، لم تعجلت الذهاب ، ولم ناديت الموت ؟ .. »

« وساعة نعوك ، ثم جاؤوا بك في صندوق مقفل ، وددت لو اتخلص من

انسانيتي ، واعدود حيوانا وحشياً اطلق في المغاور والكهوف ، فادخل اظافري في

جلدي وازار زئير اللبوات والنمرات !

« يا شبح الموت ويا آكل الكبود !

... وتبقى سلمى في وحشتها واحزانها وانكسار قلبها ، اياماً واياماً ، يزورها

بعض اصدقاء اديب ورفقائه ، منهم يوسف يزبك الذي دفعت اليه سلمى شهقات

روحها تلك وانات قلبها ، وقد دونتها في ساعات ليل لم تذق فيه طعم الكرى ،

وظلت تناجي فيه طيف اليف وروحها وحبيب حشاشة قلبها ... »

فهزت يوسف هذه الآهات تنبض بالألم الصارخ وتضج بالتفجع الجارف ، فلم

يملك من نشرها في كبرى صحف بيروت ، فتبكي المجالس فتى الحب الشاعر ،

وتهتز الافئدة اشفاقاً على سلمى ... »

فيا لطول الايام في مسيرها الرتيب ، ويا لقفر الاجواء من مؤنس اليف ...

فراغ ، فراغ ... وسأم ، سأم ... للوظيفة متوجباتها ، وللجمعيات شؤونها ...

للابنة المزرعة بين امها وابيها شجونها ... وسلمى في كل ذلك ، ظل يسير ولا

هي ، يعمل ولا يخطط . اهي تدفع الايام ام الايام تجرفها ، انها لا تدري ... »

انها تصبح وتسمي في فراغ ووحدة ووحشة ...
هو المساق تغمره الكتابة ما سارت عليه حياة سلمى اياماً وشهوراً ...

واذا هي في هذا الحال يلفها بر كوده الماضي ، تصاب سلمى بانفجار في عنبها بعد ان عانت آلاماً برأسها اسابيع واياماً اضطرت خلالها للاستمرار في العمل في الكلية العلمانية وفي تصحيح فروض التلامذة .. فالتزمت الفراش طويلاً ، يعودها اصدقائها الجيمون ، الى ان ابلت مما اصابها وعادت الى مزاولة العمل والى حمل اثقال آلامها وجراحها المدفونة في زوايا نفسها ...

... انتها يوماً ، آتية تجربها ان معاملة لها في المفوضية الفرنسية تتعلق بارسالها للتخصص على نفقة السلطات لم تنجز ، فيؤثر التأخير تأثيراً سيئاً على مصلحتها .
امتطت سلمى عربية خيل برفقة الفتاة ووجهتهما المفوضية الفرنسية .
واذا بسيارة جيش تصدم العربية فتقلب هذه الاخيرة بمن فيها ويرطم رأس سلمى على رصيف حديقة الصنائع ، لتعود من غيبوبتها وترى ذاتها في المستشفى ، اذ الانفجار الاول يعاودها بأشد واكثر خطورة من المرة الاولى !

هلعت القلوب والتاعت الابنة ... ومرت ايام وجوم ..
نجت سلمى ...

ولكن حال العين ، وهي « اداة العمل » عند المعالمة ، لم تكن لتطمئن ...
بقي على المصابة ان تفكر بالسفر للمعالجة ... انها المناسبة المنشودة ...
هربا من الفراغ ... هربا من الذكريات والآلام ... الى باريس ...
قضت هناك اشهرآ في المعالجة ، ولكن العين المصابة لم تشف تماماً ، فكانت الحاجة الى النظارات الخاصة وكان ان بقيت سلمى تعاني الآلام والمصاعب بحكم مهنتها الى اخر عمرها ..

لم نر الادبية في خلال هذه المرحلة من حياتها نتاجاً يليق بمواهبها جديراً بان
يركز مكانتها الادبية ...
انه الرزق وانه العمل في سبيله ...

الا ان الادباء ظلوا يقدرّون قامها الساحر وعبارتها الرقيقة واسلوبها المحبب الى النفس ، فكان ان التقاها امين الريحاني غب عودته الى الوطن .

ويا لشد ما اعجبت سلمى بهذا النابغة اعجابا ندعها هي تحدث فيه بعقلها وقلبها ،
حديث « صور وذكريات » .

قالت :

« كان يغنيننا ونحن بعد في ميعة الفتوة الاولى ...

« اي امين ! لقد كنت « بطريق » المتعبدات والمتعبدن ، فحسرت هيكل المعرفة والادب ، وكنت امام المفكّشين عن الحق والحقيقة ، امام الراكضين وراء المثل الاعلى ، امام المحبة والنقاء والصفاء .

« لن انسى وجهه في تلك الساعة - ذلك الوجه الاسمر ، والرأس الوحيد التركيب ، والانف القوي ، والشعر السليم يتماوج فيه سلم الالوان الفضية والرمادية ، وتينك العينين البعيدتين العميقتين حتى ينكشف للتناظر اليهما وحي اللانهاية ...

« وجدته ارفع من كل منظومه ومنشوره . ان آثاره تعطينا صورة عن تفكيره وتقتصر عن الامام بكل مواهبه الروحية ...

« هو لنا في ادبه مثل اناطول فرانس ، وفي تفكيره الاجتماعي مثل تولستوي ...

« وشرف بيتي الصغير قبل سفره ... كانت زيارته لي شرفاً اثيلاً ، وجلسه الى مائدتي مجدّاً تضاءلت عنده كل ايجاد هذه الدنيا ...

« واخذت تلك اليد الصغيرة السمراء ، الشبيهة بيد فتى مريض ، تلك اليد التي حملت من الاوجاع ما يكفي للقضاء على همم مئة رجل مجتمعين ... رفعت الاصابع الذخيلة الى شفتي ولثمتها بخشوع خاسبة اني اثم كل آلام قومي ...

ويوم اعتقلت سلطات الانتداب الريجاني الوطني « المتمرّد » لابعاده ، سجلت
« صور وذكريات » سلمى هذه السطور العنيفة ، تقديراً لمن عرفت ودفاعاً عن
احبت .

« وسكت رجال الحكم الوطني سكوت الاموات ! ولو ان ولدأ مشاغباً
ينتمي الى احد المحتير طرد من مدرسته في قرية من قرى الجبل ، لحدث طرده
هزة اثارت من النخوة في صدور رجال الرأي اكثر مما اثار ابعاد الريجاني الكبير ! »
فيعود الفراغ الشامل الى نفس هذه المرأة ، الى نفس فريسة الظروف والاقدار ،
وترعوام في حياتها باهتة مغمورة ، لا نرى فيها ما يستوقف ، اذ تجري برتبة بملة ،
قد تكون سلمى صادفت خلالها من الصداقات ما قطع سياق وحشتها ، الا انها لم
تترك اثرأ في حياتها نعرفه ...

ولا يجب ان ننسى ما قد كانت جنته من خبر ودروس فلم تعد تلك التي تضطرم
في نفسها شعلة الوله وتنطق فيها رحاب الالاماني بعفوية سداجة المؤمن بالناس ،
بكل الناس ، لبواد الحب والتملق وقد عرفت من الناس ما جعلها تتخلى عن
كثير من اوهاهما ...

الا ان الفراغ ظل يدفعها دائماً وراء الرجل السند ايا كان ...
وسعيأ اليه وتفتيشأ عنه ظلت نمضي ...

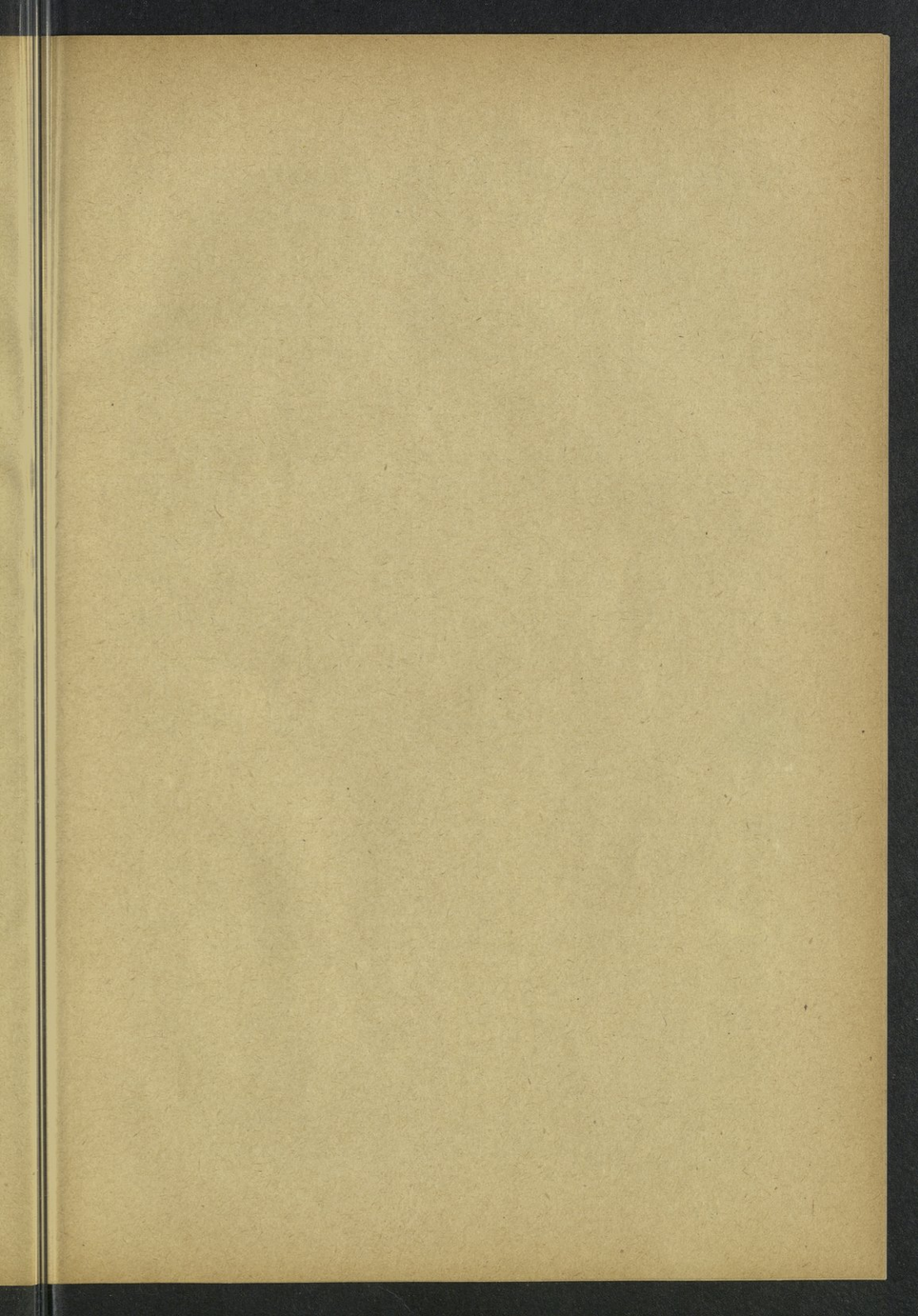
هربا ، هربا من الفراغ ...
فسافرت الى البرازيل ... سعيأ وراء رجن ...
فمن هو ؟

غادرت موطنها وآلها واحبابها ، سعيأ وراء اخ لها في خاطرها ، لا تذكر له
وجهاً ، اذ هاجر وحل في العالم الجديد . هي بعد في اول وعي الطفولة ...
ويحدث اصحاب سلمى في سان باولو عما مانت هذه الاخ الطامأ الى الخزان
والالانة ، في البحث عن الاخ الضائع في مجاهل الارياف البرازيلية اللينة ...
ولكم اجتازت من ألوف الاميال ، على البراري والفيافي المعزولة ، حتى التقت
هناك مريضأ في مزرعة بعيدة ، بعيدأ منقطعأ لذاته عن الدنيا ...

وما زالت به ، تطلب اليه العودة للسكنى في العاصمة البرازيلية تمهيداً للأياب
الى الوطن الام ، وتلحف في الطلب ، تارة بعقلها واقناعها ، وتارة بقلبها ودموعها ،
حتى اقتنع ولبى ، نزولاً عند ارادتها وكرماً لعينيتها ...

وعادت سلمى من اغوار هاتيك الابعاد ، تجتاز الشواسع وتطوي الافاق ،
الى سان باولو ، على اجنحة النشوة الكبرى ، لتعد للاخ الذي وُجد بيتاً ومقراً ..
وما كانت تدري ان القدر العاشم سينقض فأساً بأيدي عبيد المزرعة ، على عنق
الغريب المتأهب للرحيل ، ويحفز له هناك ، في اقاصي الغربية ، قبراً ومستقراً ...
ويقسو القدر العاشم بعدوانه وايلامه ، فتعلن مع مأساة سلمى تلك ، مأساة
الانسانية كلها ، باعلان الحرب الكونية الاخيرة ... فاذا الحدود سدود ، واذا
البحار اسوار ، واذا سلمى الغربية ، الهاربة من الفراغ ، اذا بها هناك بين قبر
تبكيه ووطن تناجيه ... واذا العودة الى وحيدتها واهلها ومواطنيها حرام عليها ،
حتى تضع الحرب اوزارها ... فتفقد بنعمة الحروب مورد رزقها الوحيد هنا ،
تفقد وظيفتها كمديرة للدروس العربية في الكلية العلمانية للبنات .

الى متى ستظل سلمى فريسة المآسي ووجيعة الفراغ ؟



ادبها مرآة !

كانت سلمى انوثة غامرة وحساً رقيقاً ، تتجاوب الاشياء في نفسها تجاوباً بشرياً عميقاً ، فكان ادبها انعكاساً لما يجري حولها من احداث وشؤون ، في اجواء مجتمعتها والنهيج الذي كانت امور هذا المجتمع تسير عليه .

وهكذا كان ادبها مرآة يستطيع القارئ ان يرى فيه ما كان مهيئاً على تلك الاجواء التي كانت تعيش فيها الادبية .

وكما كانت سلمى انوثة طبيعية باعماق ذاتها ، ومراحل حياتها ، وكل مظاهرها ، هكذا كانت كذلك ، انوثة طبيعية بكل ما خطه قلمها من انتاج . ففنية المرأة ، بقلبها وحسها ، بيئة تبدو في عبارات سلمى ، وتنفذ اختلاجات امرأة ، وحنو ام ، وجناحي صديقة ومواطنة ، وآهات انسان ... واناقة الانوثة برقتها ودقتها وعذوبتها ، بل بزينتها وتبرجها ، بيئة واضحة ايضاً ، تبدو في عبارات سلمى كلمات انيقة ، رقيقة دقيقة ، وحروفا عذبة مزدانة متبرجة بحيث ان ادبها كان مزاجاً ايضاً .

الا انه ظل يفتقر الى التوجيه الواضح المرتكز على تفهم واقع المجتمع الذي عاشت فيه ، تفهما واضحا تستطيع معه تبين الاسباب التي تولد فيه المشاكل الاجتماعية التي كانت تتناولها سلمى بالبحث ، منطلقة وراء غيبات يطاردها اخیال في المجهول ،

بالتحدث عن بدييات تجاوزها الواقع ، او بالوقوف عند مطلقات غامضة سادرة في مدى الظن .

غير اني ابادر الى القول ان سلمى في كل ما كتبت او في كل ما قالت لم تبق بعيدة عن روح الواقع ومعرفة بعض هذا الواقع ، وهكذا فاننا نوفق اذ نراجع آثارها الى العثور على اشياء مفيدة من حيث الاشارة الى ادواء مجتمعها ومن حيث انها تفتح مطلات على ما جهلناه او نسيناه .

ذلك من حيث ماهية ادب سلمى .

اما من حيث كميته ، فسلمى كانت مقلة ، الاسباب اشترت اليها ولن اعود للتبسط فيها ، فلشد ما يؤلمني ان ارى مأساة الاديب تتكرر وتظل تتكرر ... فالاديب الذي يعطي من قلبه وروحه ما يكون اثنى ما في وطنه من ثروات ، لا يصادف سوى الجحود .. واذا ما اهتمت اوساط او سلطات لوضعه ، فيكون ذلك على حساب كرامته ، لان تلك الاوساط وهذه السلطات ترى في ما تعمل منة منها لا واجبا .

وهكذا اضطرت سلمى ان ترتبط ساعات وساعات في النهار ، ترهق بها نفسياتها ، وتذيب فيها حشايشها ، فترحل عن اثنين وستين عاماً ، لم يصدر لها طوالمها سوى كتابين اثنين ، احدهما « النسبات » في الوطن ، وثانيهما « صور وذكريات » في المهجر ، وتطبق شفتيها على صمت رهيب وفيها ، لو تسنى لهما القول ، كتب ومواضيع !

ما لنا نلوم الزمان ؟ ألسنا نحن الزمان ؟

وكتابتها « النسبات » الذي جمع مواده جورج باز من مقالات وقطع لسلمى وعني بطبعه ، نفيس بأسلوبه اختال يراعى سلمى في كل قطعة وردت فيه . ولاعطاء فكرة صحيحة عن روعته انقل مقطعاً من تمهيد جورج باز ، قال : « اتنى لو كان لي اسلوب كاتبة « النسبات » لاحسن التمهيد . لان كتابا نفيسا ممتازاً كهذا كاث اولى بمثل النشأ منه بانثائي ، ليوازي تمهيد فصوله .

« اما وانا المحظي بجمعه وملاحظة طبعه، والمستند مراجعته وتكرار مطالعته،
والمعجب جدا بكتابته، ولا بد لي من تدوين تمهيد له، عملا بعادة المؤلفين فلم علي
استمد من جماله جمالا استطيع به ايفاء واجب التمهيد ولو دون ما يوازيه .

« ولا اتعمد تعريف الكتابة وهي « بيواعها الساحر » غنية عن التعريف،
ومطالعاتها يعرفنها من زهاء عمر البدر في زمن « حسنائي » ثم في « مينرفا »
و« الفجر » و« الحذر » و« المرأة » و« الحياة » الجديدتين . ومطالعوها يذكرونها
من عهد « البرق » الى « المعرض » و« السائح » و« الشعب » و« لسان الحال »
و« مجلة سر كيس » وغيرها من الصحف العديدة اخذا عن بعضها .

« ان كاتبتنا النابغة ولئن تجاهلت موهبتها اتضاعا، وحرمتنا فيها توفرها على
الانشاء جهدها في ما مضى، الا ان اليسير الذي انشأته فيه من الابداع شيء
كثير، فيه جمال وفن، فيه ريشة مصور ونغمة موسيقي وخيال شاعر ومعرفة
عالم، وادب كاتب، ورأي مفكر، وشعور حساس، فيه وطنية وحرية وغيرية
وانسانية، فيه جرأة ونهضة وحكمة ومحبة، وفيه شغف لامس الروح وسمو
بلغ السماء ! »

من هذا السرد يتضح للقارئ ان سامي كُتبت في مجلات وصحف كثيرة،
فلعل القلة التي المحت اليها لم يكن سببها ضيق الوقت لدى الساعية وراء رزقها
وحسب، بل لعله ايضاً عجزها عن طبع آثارها !
ايها القلم كم انت مظلوم ومحروم !

ومزاجها وانوثتها وسداجتها هبات تتماوج مع كل خفقة من « النسبات »
كتابها .

ولنقرأها تقول بلسان جندي شيخ في « اغاني الجنود » :
« ارجعوني الى بلادي » ، فقد اشتاقت نفسي سماء بلادي .

« ارجعوني الى الشاطئ البهيج ، ذي الرمال البيضاء ، حيث تمرغت طفلا ،
وحملت فتى ، واحببت شابا ، وانحنيت كهلا .

« انا كهل جاوزت الخمسين ، سحبت جنديا وقد كاد ظهري ان ينحني ، فترك
مدينة آبائي وسرت بين يدي ضابط صغير خليع امسح حذاءه ، واطعم فرسه ،
وانا سيد في قومي ، امير بين عشيرتي .

« ارجعوني الى قريتي فاجلس امام الموقد وارى اولادي واحفادي يلعبون
فيمثلون شخصي آن كنت صبياً .

ما اعمق احساسها وارق عاطفتها التي غاصت الى اعماق هذا الشيخ فعرفت ان ما
يجرحه ويدمي نفسه « ان امسح حذاء ضابط صغير خليع وهو في قومه سيد »
وتطلق الصرخة الانسانية المدوية بلسان جندي شاب في « اغاني الجنود »
ايضاً :

« حصدت وحصدت حتى ذابت حشاشتي من منظر الدم ، فصرخت : رباه اما
للجور قاهر ؟

وبلسان جندي فتى تقول :

« انا فتى اقطعوني من صدر امي ، وامي عروس بين البنات ، وفلة بين
زنابق المروج .

« خذوني الى خدر امي والى انفاسها النقية ، خذوني ! ان في نظرات النساء
نعيم الحياة ، وفي نبرات اصواتهن اناسيد الخلود .

وتتابع في « اغاني الجنود » قائلة بلسان الشيخ والشاب والفتى فتمر امامك
المشاهد والصور ، وترتعش في حناياك الاحاسيس حارة متوقدة ، او دكائية
موجعة ! ويا لبراعة تلك الفنانة التي كانتها اذ تصور لنا هذا المشهد حين ترك
جنديا متطوعاً يتكلم فتصور قرى لبنان اثر الحرب الكونية الاولى :

« وسكت النفيير فارجعني قائدي الى بلادي .

« فسرت الى قريتي وفتشت عن بيتي ، فرأيت مكانه اربعة جدران متداعية ،
دخلت من المكان الذي كان في سالف الزمان بابا ونظرت في احدى الزوايا بقايا
الموقد وفوقها آثار الدخان .

« ورأيت على جدار شيئاً أشبه بازهار صناعية كانت تعلقها زوجتي حول
ايقونة العذراء ، وتحت الايقونة كانت تضع سرير الاطفال »

ما اذق هذه الفئانة اذ هي تعطي الطابع المحلي الخاص بقرى بلادنا .
ونقضي على لسان هذا الجندي المتطوع :

« فجلست مكان ذلك السرير ورفعت نظري فوقع على المسرحة . فتذكرت
نور السراج الزيتي الهادي ، واغاني امي لاختي الصغيرة ، ورقص الصبيان اترابي
ليلة العيد .

« وذكرت منظر النار في الموقد وصوت الرياح تقصف خارجا .
« وذكرت وجه زوجتي وعنقها الممتلئ وصوتها الرخيم يحدو اغنية الامهات ،
وحسبت انني اسمع صوت السرير الحشبي ذاهباً آيماً ؟
اية موترات واية نداءات في كره الحرب ابلغ من هذه الصور الحياتية واشد
تأثيراً في نفوس الناس ؟

لم اقرأ اعذب من هذا الوصف لاستمتاع الامومة اذ هي ترى كبدها يدب
ويمشي ويتحرك .

فلنقرأها في قولها الى ابنتها ، الى عائدة ، في قطعة الامومة :
« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شبيت ، بل قبل ان ولدت ؟
« عندما تاملت لأول مرة قرب فؤادي ؟

« وعندما اتوا بك الي فاخذتك الى صدري وبقيت طول ليالي اتأملك على نور
الزيت الضئيل ، ناظرة الى عينيك ، وجبينك وفمك ، وانفك وخديك وكل اعضائك
المتناهية الدقة والليان ، وقائلة في نفسي « هي لي ، هي لي » !!

« وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي

« وعندما فطمت فبكيت صدري فلمست اول هموم الحياة .

« يا حلاوتك في كل آن وزمان يا حلاوتك .

... تفقد المرأة اباه ، وامها ، واخاها ، واختها . فتتألم نفسها وتبكي عيناها ،

ولكن موت الولد يؤلمها جسدياً فتتوجع كمن فقئت عينه ، او بتوت يده ، او شقت كبده .

« كان لي ملاكان ذهبيان

» فنزل يوما ملاك اسود كبير على بيتي ونظر بعينه الناريتين الى احدهما ، وكما تكهرب الافاعي صغار الزغاليل فتأتي صاغرة الى افواهما ، كهرب ملاك الموت ولدي فسار امامه صاغراً حزيناً .

« آه ما امرهم عندما يموتون !

» « آه لنظرات الحزن في عيونهم تقطع الاوصال والاكباد عندما تعف شفاههم عن اطائب الحياة وتتحول الى ظلمات الابدية .

» عندما يصارعون قوات الموت بكيانهم الضعيف فيختلجون ، ويثنون ، ويحشرجون وهم لا يدرون ماذا يقطعون !

» واحتمل الموكب الصغير ، الجسم الصغير ضمن التعش الصغير ، ومشى به خلال اشجار السنديان ، فوقفت اتبعهم بنظري الى ان اصبحوا نقطة سوداء كبيرة تحمل نقطة بيضاء .

» واراد ذوي ان يحولوا مجرى افكاري بكلمات مألوفة فتأملت من نبرات اصواتهم البشرية التي قاطعت في نفسي اصوات الاجواق العلوية ! !

« سكوت . بالله ايها الناس ، تقول الامومة !

» اني والموت واحد ، فلا تفصلوني عن نفسي .

« الامومة شيء عظيم كهذا الوجود . الهي كاملاً الاعلى .

» سكوت . سكوت . ايها الناس تقول الامومة .

« انا والموت واحد ، فلا تفصلوني عن نفسي ، ولا تحولوا بضجيجكم بيني وبين كياني »

وما احيلها تتخيل مشاعر الصغار اذ تكتب في قطعة « مي تنهد » :

« كان لوالدة مي صديقة لها ابنة تدعى هند ، فانتقلت بحبة الامهات الى

البنات وصارت هند تبكي لبكاء مي ومي تضحك لضحك هند . وكان في بيت مي خادمة تدعى مريم جاءت أمها يوماً زائرة . فدهشت مي الصغيرة واخذت تدور حول الزائرة تتفحص اسنانها وضمائرها الصناعية وثوبها الواسع . واستأنست فاصغت الى عبارات الحنان بين مريم وأمها ولم تتمالك ان سألت هل « للكبار » أمهات ؟ فاجيبت أن لكل الناس أمهات .

« ولم يأت المساء الا وفكرة الامومة تملأ دماغ مي الصغيرة فانت وجلست على ركبتي أمها وسألت :

« - يا أمي اين أمك ؟

« ليس لي أم

« - لي أم ، ولهندام ، ولمريم أم ولكل الناس أمهات ، وانت اين أمك ؟

« - في السماء يا ولدي .

« فحزنت مي الصغيرة ولمع في عينيها بريق ألم عميق فتنهدت وصرخت بصوت مرتجف : آه ... يا أمي لماذا انت بدون أم ؟! وللمرة الاولى بكنت مي على أمها ووحدة أمها .

... « ولما وضعوها مساء في فراشها شبكت يديها على صدرها وقالت انها « زعلانة » من يسوع الصغير ولا تريد ان تصلي له .

« - ولماذا انت زعلانة ؟

« - اما رأيت كيف انه امات والدة هند ؟ من سيحب هند بعد اليوم ؟ » وتنهدت مي وارسل صدرها الصغير زفرة طويلة عميقة ولاول مرة في حياتها بكنت على الناس ومصائب الناس «

ولنقرأها انسانا شفوفاً رحيماً في قطعة « تذكارات يتيمة »

« فارقيت على البلاط البارد ، وجسدي ينتفض ، وكلي شوق الى الارتقاء على صدر حنون دافئ ...

« وكيف تكون شابة تلك التي ما ابتسمت للمحبة ، ولا للفتوة ولا للشباب ؟ »

ولتقرأها في ما يلي ، ونر كيف تحس واعية واقع الانسان في عالمه ، فتتهيب به الى الصراع في هذه الحياة التي لا مكان فيها ليائس مستسلم كئيـب ، فتقول في قطعة الغريب :

« وسافر الغريب بعيداً لمكافحة الايام ، والايام تيار غنيف ، اهوج يسحب الضعفاء ويكفئهم بامواجه ذات الزبد ثم يرميهم في بحر الظلمات ! والحياة مقصف هياتة ايدي الغواني وصفت على موائده اكواب الغبطة واثار الهناء ووقفت اجواقهن على بابه تستقبل الداخلين ، فمن كان عابساً كئيباً صفع وطرح خارجاً .
« لان الكآبة وباء يهرب منه الاكلون ، والراقصون ، والشاربون .

... « سافر الغريب ، وهناك بين جماهير الاغراب عصف في قلبه شوق الى صديق يحن ويؤاسي فكتب الي يقول :

« في ساعة تلعب بي امواج الحياة القاهرة اقتش على يد لطيفة امرها على جبيني الملتهب - فدعيني ابوح بسر يغالبني واغالبه ، دعيني اقول لك انني شقي اكثر مما تظنين يا اخت المجاهدين في هذه الحياة ...

« انها نزوة من قلب مكلوم اغتفريها واستري فالشكوى لغير الله ذل »

« ورجع الغريب وجلس الي وكان صرخته تلك فككت قيود كبريائه فباح بسر عذابه ، وسر نحوله ، وسر خيبته ، وسر حظه الاعمى ! لان الحظ اللامع اليك الفكر اللامع ، واني للفكر ان ينور وقد اطبقت عليه ظلمات الحرمان ، وتأكلته وساوس الغيرة والشك ، وعشش فيه ، في الثنايا منه ، والحنايا والزوايا شعور واحد ، لا يبرح يطن ويرن :

« انني منبوذ ، انني مكروه ، انني غريب !

انها لصور رائعة لواقع ينقض على الضعفاء والمستسلمين الكئيبين ، خطتها يد سلمى ، فمن شاء تلافيه ولم يرتضه لنفسه مصيراً ، وجب عليه ان لا يكون ضعيفاً مستسلماً ... ذاك ما تشير اليه سلمى بادراكها الانساني لحق الحياة .

و « الغريبان » ... من هما « الغريبان » ؟

ما لنا وهويتيهما ... هو من مصر ، وهي من لبنان ... هكذا تقول القصة ،
قصة سلمى .

فلنقرأ سلمى ، بل فلنقرأ شيئاً من قصة سلمى :

« هو شاب مصري ، سمحت له ثروة أبيه ان يسكن قصرًا هو متحف بما حوى
من النفائس الشرقية والغربية ، وان يجمع حوله حلقة من اهل الادب والفن ،
وان يدرس فن النحت ويبيع فيه الى ان تعرض تماثيله في المتاحف الى جنب
تماثيل مشاهير العصر .

« نبوغ ، وعلم ، وفن ، وفكر واسع منطلق ، وتلبس تام بكل جديد ،
بهذه الصفات تساط هذا الرجل على حياتها فما لبثت ان خلعت اسمها القديم فاخذت
اسمه وصارت مدام غنام .

« اما ايام خطبتها فمرت كحلم ذهبي جميل ... واما ايام زواجها الاولى فمرت
كالبرق لا تكاد ترى لمعانه حتى يختفي .

« كانت تزور خطيبها في قصره ، فتدخل القاعة الكبيرة الملائى بمجمل المرسوم
والمنحوت ، وتتيه بين تماثيل الرخام الصامت . فيأتي ويأخذ بيدها الى مقعد كبير
فرش بالوسائد الجميلة . وهالك يجلس عند قدميها ويقول لها - فيما يقول - انها
اجمل تماثيل صنعه النحات . .

« كان يهمس بلغة عذبة ما سمعتها في كسروان ، ولا في صالون امها ، ولا
في قاعة التدريس ... كانت لغته - حيناً - تشابه هينمة النسيم ، وابتسامة الطفل ،
وانغام الموسيقى في الكنيسة يوم آلام يسوع ، وخرير المياه في منعطفات لبنان
- وحيناً - كان حبه يقصف كالرعد ويزأر كالعاصفة فيهز روحها هزة عذبة كالحياة
ونخيفة كالأهوية .

... « ونزل عن عينها يوما حجاب التساهل ونظرت الى نفسها الى الحقائق
حولها فاذا بها منفردة متروكة .

« ذهب الحلم الذهبي ، وتمر الحب كالبرق الخاطف لا تكاد تشعر به حتى

يحتفي ... وتلك القبلات المذيبة ، وتلك الانفاس الحارة ، وتلك اللغة السماوية
كله ذهب وبقي ذاهباً ...

« لم هذا الجفاء ؟ لم هذا السكوت والبرودة الخرساء والنظرات المظلمة التي تقع
على كل شيء وتهتم بكل شيء - الابهى - عبثاً جربت ان تعلم فلم تعلم سوى ان
الرجل الذي اختارته رفيقاً وصديقاً وركننا تستند ، اليه نبذها في زاوية بيته كاحدى
الاثرات التي جاء بها من الشرق .

« ويوما عرضت لها حاجة فدخلت الى غرفة التماثيل - وكانت قد هجرتها منذ
شهور - فرآته جالسا الى اقدام فتاة في الخامسة عشرة من عمرها سمعته يقول
« انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحات »

« فهربت مسرعة الى غرفتها واخذت رأسها بين يديها وبكت عمرها الضائع
وشبابها المكروه .

« آه ما ابرد تلك الجدران واسخف ما عليها من بدائع الفن وثمين الأقمشة ،

كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة !
« ومضت الايام والشهور والسنون وذلك البيت يضم غريبين يجتمعان حيناً
على المائدة وحيناً في زيارة لازمة لتثبت المركز الاجتماعي .
... « اما ابنها الوحيد ... فكبر غريباً بين غريبين .

... « انكملت نفسها فاصبحت كهذا البحر لا يدرك ما فيه - واليوم هي
حلسم من الطلاس لا يحل سحر ، هي الحلقة المفقودة بين الشباب والهرم ، والحب
والبغض ، والحياة والموت . »
بهذا اختتمت سلمى قصتها .

وها هي شقوة ، رحومة ، عاذلة انسانية ، في حكاية « هيفاء الديوانية » اذ
تقول :

« قلب فقيرة ، وحكاية فقيرة ... نعم للفقيرات قلوب - كما لذوات القصور -
تهم وتمتاع ، وتتفجع وتمتاع ، وتحزن وتمتن ...

وانسانيتها هذه ، السادرة في مدى الخيال الحلو الرائع كانت تدبر انظارها دائماً الى فوق ، الى حيث تجى الفوارق وتغيب الضعائن والاحقاد ، تأهية في اللامكان ، فتقول ، في « اجراس العيد » ولعل هذه القطعة هي من اجل ما خطته هاتيك الانامل الرخصة وتناول ذيك القلم الرشيق ليمضي متوثباً مشيقاً ، ويخطر كصاحبه ، رفيق الخطو ، شجي الايقاع ، عميق المعاني ، تقول في « اجراس العيد » :

« هلي في كل مدينة وقرية ومزرعة ، على كل مرتفع وعلى كل اكمة .
« سبجي ! فصوتك حلو لذيد ! من هذه الارض حيث سمع صوتك لاول مرة انبعثت فكرة العبادة الالهية ، ومن معاطف هذه النوديان ارتفع قديماً الفكر البشري مفتشاً على « يهوه » العظيم .
... « اهتفي اهتفي ايها النواقيس ، اطمسي برنينك عربدة السكرى وانين المرضى وضجيج المفسدين .

« اعيدي علينا ذكرى الدهور الماضية يوم كانت الملوك تتونم بزيت يبهج الوجه ويخبز يشدد قلب الانسان ، ويوم كانت الارامل والايتام تتسابق الفجر الى الحقول وتجمع كفايتها مما فرضته الشريعة على الحصادين » .
... « ذكرينا بهم كلهم ، بالمنفيين والمصلوبين ، بالخائفين والمضطهدين !

« ذكرينا بهم قبل ان ننسى لان على جماجمهم وعظامهم قام الوطن الجديد ، ولان استشهادهم فتح لنا باباً للمطالبة بالحق . بانينهم - بانين مئة وثمانين الفا - كتب لنا صك ثمين نحمله اليوم وفي كل يوم وبعد مئة سنة وبعد مئات السنين تتفتح امامنا الابواب الموصدة والقلوب العمياء الصماء .

« هلي ايها الاجراس مساء وليلا وباكر اسحرا ... شاركي المؤذنين المقيمين مثلك في القباب ، والصارخين - مثلك - بالناس الى طرح اثقالهم على اقدام الرحمن الرحيم .

« امزجي رنينك بنشيدهم الوقور المهيب ، فلعل اصواتنا المتنافرة على الارض

تتقارب وتتحد فوق الضباب وتعود إلينا بردا وسلاما .

« اسكتي يا اصوات الانكسار والهوان

« في قلوب الاسرى والعبدان ...

... « تلاشي يا اصوات الطمع في قلوب الاقوياء

« القابضين بأيديهم الفولاذية على سياسة العالم ، وصناعة العالم ، المكيفين الارض

جمعاء بقالب ارادتهم القاسية ، الضاغطين على انفس الامم لا تنال حقا مشروعا الا

بعد ان تتلاشى نفساً في نفس .

... « هلاي يا اجراس العيد ، ارتفعي فوق الضباب وامتزجي بنشيد المؤذنين

وعودي إلينا بردا وسلاما » .

وتستمر سلمى في التعبير عن خلجات روحها وقلبها وعقلها فيما تحس وتشاهد ،

وتظل المرأة تنعكس عليها اوضاع مجتمعتها وما يتماثل فيه من تيارات فققرها في

قطعة « التربية القومية » تقول :

« الحمد لله الذي اوجد فينا من ينادي بالتربية القومية . — هذا النداء سوى

اقرار بفقدانها ، فمتى شعر المرء انه بحاجة الى الشيء سعى وراءه ، وفي السعي

اليه نيل له قريب . ومن ينادي بالقومية يصبح بها بشيرا ، عاش اذا هذا النداء

وعاش البشير .

« كنت في عهد الفتوة احلم لو تصل الانسانية الى يوم تختفي فيه الجسديات

والقومييات ، وتصبح الارض كلها جمهورية كبرى رئيسها الله .

« وجاء الشباب ومعه حادثات الايام فارتنى ان الحلم بعيد والانسانية لن تصل

الى حد الكمال الا يوم تسمي كل طوائف البشر في مستوى واحد ، اي يوم ترتقي

كل امة ضمن قوميتها ومن ذلك اليوم — منذ تأكدت ان التفاوت بين الامم

يجعل فيها قويا وضعيفا اي آكلا وماكولا ، صرت اعتقد بمبدأ القومية — القومية

القوية الطماحة التي ينادي بها الاستاذ بولس الحولي .

« هذه القومية لا تأتي — في نظري — الا عن طريق التربية . وهذه التربية لا

يقوم بها الا كل من تطهرت عاطفته من كل تأثير خارجي وارتنى عقله فأمن الضلال
وتسامت نفسه فعانقت نفوس الذين انما مروا على هذه الارض ليعلموا الناس كيف
تكون التضحية .»

وتستمر سلمى في الدعوة الى التربية القومية من اجل مستقبل الامة فتعلن
قولها :

« انا القبي الحبل على ابن البلاد لان من لا يعرف ان يحمل وطنيته كما حمل
يسوع صليبه ، لا يستحق ان يعيش .

« ليضح السوري العائش في وادي النيل برغد وهناء وليرجع الى بلاده فقد
كفانا ما استعمر من صحارى السودان على اكتافنا ... فتكسير الحصى في الوطن
افضل من الحياة تحت ظلال الناس .

... « ليخفف الماروني من حبه لفرنسا والبروتستاني من حبه لانكلترا
والارثوذكسي من حبه لروسيا والمسلم من حبه لكل الجامعات الاسلامية التي
يمكن ان تتألف في انقره وموسكو وبرلين ...

« لنخفف من حبنا للناس ايها الناس فمن العناق ما هو خناق !
وها هي في قطعة « يا بلادي » مواطنة شغوفة بوطنها حتى انها تشتهي ان تحرق
من اجله فتقول :

« يا بلادي كم يتغنى بك الناس وكم تلعنين من بنيك !
« يا بلادي ، ما اكثر المتقاتلين على هواك وما اقل حظك من ذويك
... « يا بلادي كم اشتهي ان اكون رفائيل فاخذ جمالك
« او دانتي فانشد قصائد حبك
« او جان دارك فاحرق من اجلك

... « اريد بلادي عزيزة ، مناعة .

« اريدها مشبعة من كل ما اندثر فيها من المدينيات ، ومفرقة على العالم دروس
العلم والحكمة .

« وكما تأملت الامومة الجريحة في قلب راحيل فصرخت بمرارة الى يعقوب
(اعطني ولدا والا اموت) ، هكذا وقفت نفسي الجائعة على اطلال بعلبك
فصرخت صراخا الهيا كالالهة وعميقا كالهواوية .
« يا ابناء بلادي القريين والبعيدين ، يا ابناء بلادي اعطوني وطننا والا
اموت » .

ثم تعرض لناظري اسطر خطتها انامل سلمي التي خطت تلك القطع الرائعة
تشع وطنية ووفاء لوطنيتها هذه (كالتربية القومية) و (يا بلادي) اسطر يبدو
لنا فيها استعداد سلمي المزاجي للسير وراء الغيبيات ، والتحدث عن البدييات
والمطلقات بحيث انه يدفعها الى الوقوع في الانحرافات والاختفاء والمتناقضات .
ففي مقالها (ما نرى وما نسمع) تقول :

« قال لي احدهم : ما هو مذهبك يا سيدتي ومن تحبين من دول الغرب ؟
قلت : ان ديني دين العقلاء والعقلاء لا يموحون بدينهم . واما من جهة المحبة فانا
يا سيدي احب اولا نفسي ، ونفسي قبل كل شيء شرقية ، ثم اني اجل واكرم
كل الشعوب الحية الراقية .

« ثم قال لي : هل علمت ان سوريا ستنال استقلالها وان مبادئه ولنستكتب
باحرف من نور واننا سنحيا بعد الآن حياة طيبة ؟

« اجبته : - وكنت متشائمة - اعلم شيئاً واحداً وهو ان الغرب قوي
والشرق ضعيف وان كلمة الاستعمار كلمة تكتب اليوم باحرف من ذهب على
صفحة من فضاء ضمن اطار من الجوهر ولكن الاستعمار يعني الاستعمار ، وان ما
قدر فهو كائن وهذا القدر يخطط اليوم مؤتمر الحلفاء الذي يأمر بامر الله الذي جعل
جلاله - جعل الحق للقوة .

الى هنا الكلام معقول والقول منسجم مع وطنية سلمي وحبها لبلادها
وادراكها خطط المستعمرين وتغريراتهم .
الا انها لا تلبث ان تستأنف قائلة :

« اما اليوم وقد تعدل تشاؤمي ودخله شيء من التفاؤل فلا بأس من كلمة صغيرة ادسها بين جمهور الصارخين وقد قيل مرارا ان صوت النساء من صوت الله وانا صدقت والذنب ليس ذنبي .

« قال سبنسر ما معناه : ان مبادئ الاشتراكية لا يمكن تطبيقها عمليا ولكن وجودها لازم فهي لجام تضعه الاكثرية في فم الاقلية اي العمال في افواه اصحاب الاعمال . هذا اللجام يشد قليلاً كلما اعمى البطر المحتكرين والمتمولين ... »

اولا - ليس صحيحاً ان الاشتراكية لا يمكن تطبيقها عمليا وسبنسر يعلم ذلك جيداً ولكنه يود اظهارها كداء لا بد منه فيتكرم ويقول انها لجام يشده العمال قليلاً كلما اعمى البطر المحتكرين ، فيبدو بوجه يالمى الاشتراكية بينما هو يجرده من اهم اهدافها واعني اشتراك العمال بشجرة جهودهم . وتنطلي هذه الحيلة على سلمى فتستعملها حجة فيما بعد لتقول ما يلي :

« فاللجام الذي بيدنا - نحن الشعوب الضعيفة - نحن الاكثرية الذين نخيك بدماء قلوبنا ثوب اوروبا الاقتصادي ، اللجام الذي وضعته الظروف في يدنا هو صوتنا نرسله من هنا صراخا فيصل الى المؤتمر همساً . وهذا الصراخ لا يجب ان يصل الى آذان من يلزم لغطاً مشوشاً بل نعمة واحدة تضرب على وتر واحد .

« ان اللجام الذي في يد الاكثرية اليوم لا يجب ان يرخى فتضيع الفرصة ، ولا يجب ان يشد فتغضب اوروبا القوية صاحبة العز والملكوت والجهربوت وتوفسنا رفسة ترمينا خمسين سنة من زوايا السياسة .

« يا قوم قد اتفقتم على الاستقلال فاتفقوا على سن بروغرام معتدل .

« ان اوروبا اليوم مع كل احترامها لنخبة رجالنا الافاضل ، تعرف حقيقة اجتماعية تجرحنا في اعماق قلوبنا ولكنها حقيقة لا يعلو عليها حق . وهي اننا عشنا مئات السنين في الذل والخنوع ولنا كل نقائص الشعوب الذليلة من سقم في الارادة وضعف في النفوس وجبن في القلوب .

... « واذا اسكت المؤتمر صوتنا اليوم قضى علينا الى اجل مجهول

فماذا تريد المؤتمرات التي هي من هذا النوع سوى « بروغرامات » معتدلة ! ؟
فهل نكون قد حدثنا سوى مآربها اذا نحن لجئنا الى الاعتدال ؟
اين هذا القول من ذلك الذي خطت حين قالت في قطعة « يا بلادي »
« كم اشتهي ان اكون جان دارك فاحرق من اجلك »
واذ قالت :

« اريد بلادي عزيزة مناعة » .

وفي قطعتهما « بابل في سوريا » تصور لنا البلبلة والتردد اللذين كنا مسئولين على
السياسة عندنا ، كما تصور لنا الانتهازية التي اعتمدها الكثيرون ، في سبيل المنافع
الشخصية او في احسن الحالات ، هربا من المشقة او النفي او السجن او الاضطهاد .
فلنقرأها في « بابل في سوريا »

« كنت اعد - على اصابعي - لئلا اغلط بالعد فيضيع الحساب .
« عددت

« حزب الاستعمار الانكليزي

« حزب الاستعمار الفرنسي

« حزب الاستقلال مع الوصاية الانكليزية

« حزب الاستقلال مع الوصاية الفرنسية

« حزب الاستقلال مع الوصاية الاميركية

« حزب الاستقلال الناجز التام بلا وصاية

« حزب الضم

« حزب الفتح

« حزب التجزئة ، والساحل ، ولبنان الكبير ، ولبنان الصغير ، ولبنان .

« قلت : اف . يكاد نفسي ان ينقطع !

... « قلت له : ان الشعب الذي لا يعرف ان يقول « لا اريد » لا يحق له

ان يقول « اريد » ...

... « سنون اربع واطفالنا تحشرج في الاقنية والمزابل وقد مسخها الشقاء

فشابهت السعادين والقرود ، بل بقايا عادو ثمود .

« من هو طفل محمد مصطفى من البسطة وطفل يوسف توما من شانغير ؟ هما طفلاي انا بحكم الامومة التي حولت الياف قلبي وجعلتها اوتاراً حساسة رنانة . هما طفلاي انا وطفلا كل امرأة شرفتها الامومة . فاذا كنت ، وانا ام ، لا اعرف ان لا اسفق على طفل جاري فقد سقط عني لقب الامومة الالهي .

... « قابلت مرة ضابطاً انكليزياً وضابطاً افرنسياً كانا ذاهبين الى قونيه في اوائل الاحتلال ، قلت لهما : كل بقايا الجيش التركي موجودة في قونيه افلا تخافون غدرهم واتم حفنة ؟ فاجابني كل بلعته . كأن كل واحد يتوهم افكار الاخر .

« واي مصيبة تحدث اذا قتلنا في وديان الاناضول ؟ الا تعلمين ان كل ضابط يقتل هو سلاح جديد يضعه الاعداء في يد الحلفاء ؟

« هذه شعوب تقدر ان تقول « نريد » ، بحكم الله ووامره والعمران وشرائعه والتاريخ وآياته التي لا تقبل الرد والتحويل .

« وخفت ان يفسر سامعي هذه الكلمات على غير معناها فقلت له : استقللنا اعطي لنا بحكم ظروف فاقت التصور . فالظروف الطارئة شيء والتطور الطبيعي شيء اخر . على انه لو اعطي او لم يعط فليشتغل كل منا لاجل هذا التطور .

وتلي قطعة « بابل في سوريا » قطعة « قولوا لها لتقول لهم » والضمير هنا عائد للجنة الاستفتاء الاميركية .

لم استطع لدى قراءة هاتين القطعتين اللتين وضعنا في الجو الذي كان يهيمن على اوساط بلادي السياسية في تلك المرحلة من الزمن . الا ان اطلق هذه الزفرة : لو يتذكر العاملون في ميدان السياسة من ابناء وطني ان كل بادرة تسجل وان ما يراه الناس في غمرة التهويل والتعريض هو غير ما يدركونه في ضوء الوقائع المجردة التي يبقونها الزمن ، لو يتذكر العاملون في ميدان السياسة هذه الحقيقة اذن لارعوا وتصرفوا باكثر جدية واقنعوا عن التهويل والتمويه .

تقول سلمى في قطعة « قولوا لها لتقول لهم »

« هي : اللجنة بالطبع - لجنة الاستفتاء الاميركية

» وهم زعماء السياسة .

« قولوا لها : كلبنانيين وبيرونيين ، كشامين وحلبين ، كعراقيين وحجازيين ،
كاناخوليين وفلسطينيين ، قولوا ما تشاؤون (اي خليط)

« اطلبوا بلسانها ، كمسلمين ونصارى ، كدروز ونصيرية ، كشيعيين
وسنيين ، كروم وموارنة وكاثوليك وسريان وارمن وبروتستانت . الى اخر ما
ابتلي به هذا الشرق من الطوائف - اطلبوا بلسانها الدولة والدول التي تريدون ،
ولكن كشرقيين قولوا لها - اود هنا ان الفت نظر القارىء الى ما يعلق في ذهن
الانسان من تأثيرات تحت ضغط الجو الذي يخلقه بريثو الغاية ينحرف عن الخط
اذا لم يكن واعياً قوياً مؤمناً بهدفه وغايته ، وهكذا نرى سلمى تقول : « اطلبوا
منها بلسانها الدولة » او الدول التي تريدون ولكن « كشرقيين » - هذا ما
كان يراد يومذاك من اهل هذه البلاد : اريد منهم ان يتخلوا عن روحهم القومية
وينشطوا ليطالبوا « كشرقيين » بحيث يسهل على متقاسمي النفوذ في هذه
الاصقاع ان يعمدوا الى التسويات في ما بينهم دون ان يصطدموا بارادة الشعب
المدافع عن كيانه وامته ، وهكذا كان ويا للأسف ، اذ راحت اكثر الاقلام
تعالج هذه المواضيع وهذه الشؤون التاريخية بروح الانهزامية وذهنية التسويات ،
وغدا ساعة يغربل التاريخ هذه الامور فماذا عساه يسجل لابطال تلك المرحلة ؟
اعود الان الى قول سلمى - « ولكن كشرقيين قولوا لها لتقول لهم ان ابناء
الشرق سيطلبون في المستقبل - القادم عليكم بالخير - سيطلبون الحق صريحاً
والسياسة صريحة والقوة صريحة .

« وان هذه الالاعيب التي يتلهون بها هناك منذ عشرات السنين ربما تدهش
في المستقبل زنوج افريقيا . اما شبيبة هذه البلاد فقد فتحت عيونها وآذانها وهي
تقرأ وتكتب بحمد الله .

... « نظرة الى هذه الاحزاب هنا وهناك وهناك ، نظرة الى مبدعيها

وموجدتها ، نظرة الى ما يقال هنا وما يقال هناك . ونظرة مقابلة واستنتاج بين ما يجري هنا ويجري هناك .

« يا الله !

» قسموا الشرق الى اسطر ونحن امّة راضينا منذ مئات من السنين قسمة

الجبار فينا ...

... » جرت اعجوبة غريبة ، تجمعنا ثم تفرقنا ثم تحزمننا ثم تحلنا ثم ترمي بنا

الى الهواء اعوادا تبعثر هنا وهناك .

» قولوا لها لنقول لهم كنا قبل ان تشب الحرب وفي خلاها قلبا واحدا وميلا

واحدا وارادة واحدة . ولكن السلم ولد لنا حربا خامة . فمن ترى يقول لهم :

» لا احد منهم يقبل الوصاية علينا سبحانه ربي .

» قولوا لها لنقول لهم : انا فهمنا ...

» ولا بأس اذا رددتم اننا نريد قوة صريحة وقولا صريحا وعملا صريحا ازاء هذه

الحالة ... واننا وان جردنا اليوم في هذا التيار فان سماء الشرق الجديد (دائما

الشرق) تملبد بغيوم ربما تعلم الغرب الصراحة قولا وفكرا وفعلا ... والمستقبل لله .

» اما اذا كنتم لا تريدون ان تقولوا فقد قلت عنكم والسلام .

قلت اجل سلمى ، وقلت اشياء صحيحة واضحة ، واومأت الى اخرى خطيرة ،

ولكنك لم تؤذي احدا ولا افدت احدا ، فالقضية لم تكن قضية شرق عند غرب ،

بل كانت قضية وطن معين وامة واحدة في هذا الشرق الفسيح عند استعمار معين

تقرضه امم معينة في الغرب ، لا الغرب كله وهذا الاستعمار كان الاستعمار الفرنسي

البريطاني ...

واما قطعها « صوت الام » وفيها شاءت ان تسمع صوت الامهات ضد هذه

الالة التي تودي براحة الكثرة من الاسر وباستقرارها المادي ، فان اسلوب معالجتها

هذه القضية يدل على كثير من البداة في نظرتها الى الامور ، فهي تقول مثلاً :

» لنفرض ان ايراد القمار بلغ العشرين مليوناً تحولت كلها الى تحسين الطرقات .

فنعن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القدرة ولا نريد اصلاحاً مؤقتاً ، وطلاء لماعاً
يحيئنا من فضلات موائد القمار التي يبيع عليها رجالنا ضمائرهم وصحتهم وسعة
صدورهم وعقولهم فيكون رجنا - نحن النساء - الشقاء الدائم والحرمان الاليم .

« اذا كان رجالا . هذه الامة يخافون الدفاع فنحن ندافع عن كيان الامة

الادبي ، نحن نحافظ على بقايا ارض قديم تركه لنا الجدود وهو الفضيلة الشرقية ...

... « تريدون ضريبة جديدة ؟ اضربوها على اعناقنا ونحن النساء نرضى بان

ندفع الخراب عن الامة ونفخر ان نكتب صفحة خالدة في سجل الوطن الجديد . »

ان في هذا النمط من معالجة القضايا العامة كثيراً من البديهيات وشيئاً من

السذاجة ... وهما عاملان كانا وما يزالان احياناً يدفعان بسيداتنا ، عند معالجتهم

امورا على هذا الصعيد ، الى المبالغة في طلب التضحية حيث لا مجال للتضحية والى

التصريح بقبول مساوىء بدل مساوىء في حين ان المطلوب في معالجة القضايا العامة

هو الاصلاح في المطلق لا ابدال سيء باقل سوءاً .

سلمى تقول . « فنحن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القدرة » لا ، لا تقنع بها ، اذ

يجب علينا ان نعلم انه اذا خسرت الخزينه ايرادا يبلغ المليون من ضريبة القمار ،

كما تقول سلمى ، فان هناك موارد اخرى تستطيع السلطات ان تدرها على الخزينه

لو هي عرفت ان مهمتها ليست تغذية صناديق الشركات الاجنبية بل صندوقها هي ،

وان مهمتها المحافظة على مواردها من التسرب الى الخارج وبهذا لا تعود السلطات

تجد نفسها امام العقدة التي لا تحل وهي عجز الميزانية كلما طلب الشعب اصلاحاً ...

ثم قولها : « تريدون ضريبة جديدة ، اضربوها على اعناقنا ونحن النساء نرضى

بان ندفع الخراب عن الامة ونفخر ... »

ليس في هذا القول منتهى السذاجة ؟

واذا قرأت القطعة التالية يكون عندي يقين ان اتجاهات سلمى كانت كلها

مسييرة وموجهة بظروف ...

لقد بدأت هذه الحقيقة تراود ذهني منذ ان بدأت بتحليل مقالات سلمى الاخيرة ،

وقد وضحت لي الان تماماً عند قرائتي مقالها « الحاكمة الوطنية » اذ وردت فيه ،

بلا موارد هذه الفقرة التي انقلها بحرفيتها ، تاركة تحليلها الى القارى .
قالت :

« اما النعمة فالفوضى ، فالثورة ، فهى ادواء لها عند السياسة دواء . والجميع في غير هذا واهية كخيطة العنكبوت ، والدعامة الدعامة هي فرنسا أولا وآخرا ، هي تحمي لبنان يوم يكون حاكمه فرنسا ويوم يكون وطنيا ، لان من صالحها ان تحميها ، وما تنصيب الحاكم الوطني سوى برهان جديد على عطفها وعلى حبها للحرية لها أولا ثم للناس . »

ومن قطعها « من المسؤول » تبرز من جديد مشاعر سلمى الانسانية العميقة ، فتكتب مصورة حال المجرم نائف الكلاس ساعة انقطع به حبل المشنقة وتصور اثرة استغلال المصورين لعذاب المجرم الرهيب ، الى ان تقول :
« وسرى العبث بالموت من الكبار الى الصغار . وكما يتسابق المئات من الرجال والنساء الى ساحة الاعدام وقف منذ ايام عشرة من الصبيان والبنات يلعبون بالمشنقة »

« ولما كانوا اناسا ولهم من العسف ما للناس فتشوا عن فريسة « مستضعفة »
فوقع اختيارهم على زرزور مسكين ربطوا يديه ورجليه ثم علقوه بخيط الى شجرة وهموا بشده على عنقه . وبشارة خفية من الزعيم رفع الاولاد ايديهم وأخذوا يصرخون الرحمة ! الرحمة ! فترة كان فيها « الجلاد » قد شد الخيط فقضى الزرزور المسكين . فقال الزعيم البارد لطالبي العفو : لقد فات الاوان .

« وانتهت الرواية بضحك شديد فسر لي قساوة الانسان ذي الانياب والمخالب .
« قصة تافهة وعادية ... ولكن كم هي شبيهة بحكاية الجلادين الحقيقيين يسلمهم القضاء اعناق الناس فيلعبون بها كما يلعب الاولاد بالمشنقة .

ولكن كلا يا سلمى ، ان الذين يلعبون باعناق الناس ، ساعة يلعبون بها ، هم الحكام لا الجلادون وما الاخرون الا اداة التنفيذ لقرارات لا يجوز ان تحملهم اية مسؤولية من اجلها .

اما سؤالك : من المسؤول في صده تحدثك عن المجرم نائف كلاس فوارد كما هو وارد في كل مرة نجد انفسنا امام مجرم .

والجواب على هذا السؤال قد يكون في المقطع التالي من مقالك وليس في المقاطع التي تحصر النعمة في الجلادين والمصورين :

« يخطئ ، زيد الى النظام او لا يخطئ ، فندسه السعاية في السجن - كذا كانت الحال منذ ايام - فتأخذ اوراقه بالتنقل من دائرة غير مسؤولة الى دائرة غير مسؤولة ويظل هو وذووه اسرى العذاب ما شاءت السعاية وشاء الاهمال . ويعتبر سواه بما اصابه فيهرب من وجه الحكومة اذا هي طلبته . واذا يطارده رجالها يعتصم بالجبال ثم يجوع فيعمد الى سلب الناس ، وبينما هو يسرق لئلا كل يسمع اطلاق النار فتهدب الحياة فيه مدافعة عن نفسها ، وفي دقيقة يصبح القروي الآمن مجرماً .
« فمن المسؤول ؟ »

ونستمر في المرور على مقالات سلمى في كتابها « النسبات » فنجد فيها بعض الالتفاتات المدركة الواعية ، كما نجد الكثير من الغموض والتبسط في الغديسات والمطلقات .

وكوني اعتقد اني اوردت من الامثلة ما يكفي لان يعطي فكرة واضحة عن ادب سلمى في تلك المرحلة من حياتها ، وقد جمعت مقالاتها وطبعت سنة ١٩٢٣ فسأكتفي ببعض عبارات ، لبعض من مقالاتها ، الواردة في كتاب « النسبات » قبل ان انتقل الى كتابها « صور وذكريات » الذي طبع في سان بولو عام ١٩٤٦ فيكون الزمن الذي مر على المفكرة الادبية بين كتابها الاول وكتابها الثاني ثلاثا وعشرين سنة ، سنحاول ان نتبين ما طرأ خلالها من تغيير على اسلوبها وتفكيرها .
عودا الى « النسبات »

في « موجة السرور الكبرى » نقول :

« لا خير يرتجى من الامم الثانية ، الامم الفارقة في سويدائها ، الموسومة - على جبين شبابها - بطابع الخيبة والهرم الباكر .

« لا شك ان الحياة هي للشباب الزاهر ، وان امة لا تغسل احزانها امواج
السرور الكبرى ، لهي امة تمشي الى الفناء . فاول ميّات الحياة و آخرها هي
« الحياة » والحياة شيء غير الانكسار ، فالخيبة ، فالذل ، فالبكاء »
وفي « حياتنا الاقتصادية » نقول :

« نخططنا اساسي لا يزيله جلاء « الاتراك » . ولا الاحتلال الانكليزي ولا
الفرنسي حتى ولا احتلال الملائكة » ومتى كان الاحتلال الاجنبي نعمة تزيل
الانحطاط او يصح تشبيهها باحتلال الملائكة ؟ ، ان حياتنا الاقتصادية هي
الاساس الذي تبنى عليه بناية الوطن فاين المشتغلون في هذا البناء ! » (هذا قول
يدل على الوعي واسباب المشاكل التي يعانها هذا البلد وادراكها) .
الا ان سياق هذا المقال الطويل يظهر لنا متناقضات وانحرافات عدة ليس فيها
اي انسجام بين القول الذي اورده وبين ما تورده من تحليلات للوضع وما تقترحه
من حلول .

ثم تشير الى الهجرة فتقول :
« وهنا يقف قلبي لا تأمل بالالوف المؤلفه من ابناء وطني الضاربين في كل بقعة
من بقاع الارض ركضا وراء الرغيف ، والرغيف هنا في قلب هذه البلاد .
« الثروة هنا وليس من يمد يديه ليتناولها .
« يعترض المهاجر بان البلاد فقيرة لا تقوم بسكانها !
« ولبس من فقر الا في قلوبنا وفي نفوسنا »
دائما الاغراق في البديهيّات !

كلا ليس الفقر في قلوبنا ، انه في جهازنا الاقتصادي المحتل ولا يستطيع اي غني
في القلوب ان يحول دون ذبول هذا الحلل !
اما قطعناها : « مستقبل الآثار في سوريا » و « حكاية الآثار » فسأتركهما
للفصل المقبل حيث اتحدث عن الظروف التي اثرت في اتجاهاتها فجعلتها تتكيف
وتتغير ..

واراني مدفوعة لان انقل بعض المقاطع من مقالها : « مبي وكتابها » - باحثة البادية

لان فيها ما يعطي فكرة واضحة عن مدى تفهم المرأة الكاتبة في ايام سلمى ،
للأمور العامة وصحة نظرتها لهذه الامور ، تقول سلمى :
« مي هي اكتب كاتبة عربية على الاطلاق ... »

... « هذا القول لا يحيط من شأن كاتبات سوريا ، هاته الشقيقات المخلصات
العائشات في محيط قاتم ، الراسفات في ثقل السلاسل ، المفككات ، بقوة
نفوسهن العلوية ، قيوداً احكمت شداها الايام .
« هؤلاء الحبيبات لمن فضل كبير ، ومنزلة عزيزة .

« في العالم العربي اليوم كاتبات يرسلن افكارهن بلغة فصحي جميلة ، ولكن
هذا العالم فقير بالنساء المتكلمات من العلوم ، المبتدعات الاساليب الحديثة .
فما تكتبه نساؤنا يجيء خلافا اذا نحن نظرنا الى الصورة البارزة ولكنه يجيء فقيراً
اذا نحن تقصينا الجوهر .

... « لهذا يشعر من يقرأ شيئاً لكاتباتنا انه يرى افكاراً شديدة الشبه بافكار
الاطفال ، بكل ما في الاطفال من العذوبة ، والطهارة والمعرفة الغريزية التي لم
تصل اليها يد صاقلة .

... « اما هذا الفراغ في العالم النسائي فقد ملأته مي ، ولعلي لم اقم بالواجب
نحو نبوغها عندما قلت انها اكتب كاتبة وها انا ارضي ضميري واقول انها تحسب
- بحق - بين كتاب الطبقة الاولى .

ثم تعود فتصنف النساء الكاتبات في مقالها « مينرفا واخواتها » اذ تتحدث عن
المجلات النسائية : العروس والفجر والحدرد والمرأة الجديدة والحياة الجديدة ،
تدافع عن هذه المجلات وعن كثرتها في نظر المتبرمين من هذا العدد للمجلات
النسائية في بلد واحد ، وبين مشتركين هم أنفسهم للجميع .

ولا يسعني ان انتهي من استعراض كتابها «النسمات» دون ان اشير الى
مقالها في (كتاب باز) وباز - جورج - هو الذي كان لسلمى المشجع على جمع
قطعها وضبطها في كتاب . فان انا فعلت احس كأن سلمى تلتفت الي من هناك
مؤنبة على اهمالي واجب يفرضه عرفان الجميل نحو من كان لها ، كما كان لكثيرات

من اترابها ، المشجع على المضي في الاسهام بالشؤون الفكرية والقضايا الاجتماعية .
تقول سلمى في « كتاب باز » :

« ان الكتاب ، والشعراء ، والمصورين ، هم رسل السعادة الروحية الى الناس .

« الانسان ليس حيوان يأكل ويشرب ويسكر وينام وحسب ...

« للانسان ، من اقدم ازمنة التاريخ ، ولوع بالملذات الادبية وفيه نزوع الى

تعميمها بين الناس .

« الكتب هي الواحات المحضلة وسط صحراء الحياة المقفرة ، تقف اليها ساعة

فنهل نهلة تنسينا مشاق السفر او تساعدنا على اكمال الطريق .

... « اما تلك التي تقف اليها فنأخذ منها زادنا لمتابعة المسير فهي المؤلفات

الاجتماعية التي قد تبدو ناشقة لما فيها من النظريات ومن الارقام . واصحابها هم

رسل الاصلاح في العالم . هؤلاء يعيشون لنشر فكرة يعتقدون ان في تعميمها

خيرا للناس وقليل ما هم يخطئون .

« وكتاب باز الجديد هو من هذه الفصيلة . كتاب يحوي ارقاما وحوادث

تاريخية نسائية . هو يسجل حسنات نساء العالم اجمع ، في الشرق والغرب والشمال

والجنوب ، في الممالك الممتدة التي تملأ اخبارها الارض وفي البلدان النائية البعيدة

مثل الصين واليابان ونيوزيلاندا ، حتى وليتوانيا . لم يترك باز بلدا نجبت امرأة

عظيمة يعتب عليه .

... « باز هو مصلح كبير ، وكاتب اجتماعي ثابت الايمان ليس في ما يكتبه

بلاغه « الامام علي » ولا جزالة « ابن المقفع » كذا يصف نفسه ويزيد :

« - لست بالكاتب الكبير حتى ولا بالصغير !

« اذا ما كان باز كاتباً كبيراً فهو فكرة كبيرة . هو فكرة كبيرة ، نظيفة ، نقية ،

بيضاء ، مصقولة ، وبسيطة بسيطة يفهمها الطفل .

« فكرة باز التي يعرفها كل قراء العربية هي :

« تنشيط المرأة ، اصلاح شأنها . تعميم تهذيبها .

« فالانتفاع بمواهبها »

« وقد زادت هذه الفكرة رسوخاً ونفعاً يوم اندغمت بذاتية زوجته الدكتور
انس ، تلك المتخذة شعاراً لها وليبيتها هذه الآية الذهبية : « المعرفة ، المحبة ،
الخدمة . »

اما مقالها « وديع صبرا » ففي ايراد اكثر اقسامه فائدة وعربون تقدير لم يفز
به وديع صبرا مفخرة هذا الشرق كله ولا مبالغة في ما اقول . ان اسمه وارد في
قاموس « لاروس » منذ عشرات السنين ، فمن سمع ، في هذا البلد ، باسم وديع
صبرا الا القلائل فجلهم من اهل الموسيقى ، وبعضهم من اهل المعرفة والعلم ،
وهم حفنة قليلة كانت تكن لوديع صبرا اعظم شعور الاجلال والمحبة .

وسيرى القراء ، من مقاطع سلمى ، اي انقلاب كاد يحدثه في سلم المتاييس
الموسيقية ، لو انه صادف التشجيع المادي والمعنوي على محاولته هذه .

اننا نرى بلدان العالم التي نحب دوما ان نزعم اننا في طليعتها ، تنفق الملايين في
سبيل اخراج فكرة تراود دماغا خلاقا ، الى حيز الحقيقة ، وتنتظر السنين الطوال
لا تثنيها عن عزمها الصعوبات والحبيبات ، وتظل دائبة حتى تسجل نصرا في عالم
المعرفة تحتل معه مكانة لا توصلها اليه انتصارات الفولاذ والحديد ..

فإذا عملنا نحن في تحقيق ذلك الفتح في عالم المعرفة الذي كان يعده بلدا
وديع صبرا ؟

اي فخر كان للبنان ، واية مباهاة كانت لابنائها في مختلف الاصقاع لو ان
وديع صبرا استطاع ان يحقق فكرته ، وسيرد تفصيلها في مقال سلمى ... وهل
لنا نحن ان نطمح بان نفخر يوما بفتوحات (على كون الفتوحات ليست مدعاة
افتخار في مقاييس الفكر) او هل لنا ان نفخر بثروات طبيعية او صناعية ضخمة ؟
كل ما لنا ان نفخر به هو ما نستطيع ان نعطيه من نتاجنا الفكري العالمي . كما
يتاح لنا ان نوّدي قسطنا في ذلك التفاعل الفكري المبارك في العالم الذي يبرر
وحده وجود الانسان والانسانية ، والذي سينتزع يوما المبادرة في تقرير مصير
البشرية من ايدي الذين يقررون هذا المصير اليوم بقوة الحديد والنار ، بقوة

الطغيان والارهاب . هل فعلنا شيئاً في سبيل ذلك ؟

هوذا وديع صبرا مثل من الامثال الكثيرة ، وساترك الكلام لسمي .
« لا اظن انه يوجد بين قراء هذه السطور من سكان بيروت من يجهل الاستاذ وديع صبرا ، فقد عرفته هذه المدينة نابغا وعاملاً ممتازاً في عالم الفن ... »

... « من المعلوم ان الموسيقى العربية الحالية مأخوذة عن الموسيقى البيزنطية ، وان الموسيقى الشرقية كلها غير مقيدة بالعلامات التي تتميز بها الموسيقى الغربية ، ولم يقدم احد الى اليوم على ربط الموسيقى الشرقية بالعلامات المعروفة بـ « النوت » - بطريقة اصولية - لان هذه العلامات وضعت للانغام الغربية (اود هذا ان اصحح الاصطلاح الذي استعملته سمي حين قالت « نوت » فاقول : سلم الدرجات - لان للموسيقى العربية والشرقية نوتها ، الا ان هذه « النوت » لا تضبط ارباع النوت واثمانها ، كما سيتبين مما يلي)

« ان اقرب الالات الى الاصوات الطبيعية هي الآلات النافخة كالقصب والناي والفلوت وسواها ، ويتلو هذه ذوات الاوتار كالكمنجة والعود والقيثارة ، اما البيانو فمع انها ناقصة - من جهة الاصوات - بالنسبة الى ذوات الاوتار ، فهي كآلة اكثر ضبطاً من جميع الآلات لان من يعزف عليها لا يحتاج الى ما يسمونه (الدوزان) (ولكن آلات البيانو تدوزن في كل عام مرة لانها ذات اوتار)
« على ان البيانو لا تؤدي الا الحان الشرقية كاملة ، ذلك لان الاصوات في الموسيقى الغربية تقسم الى انصاف . اما الاصوات الشرقية فتقسم الى ارباع والى اثمان . لهذا لا يمكن لاي موسيقي ، مهما كان بارعاً ان يعزف على البيانو نغم « غيري على السلوان قادر » او اي نغم سواء وبأني به كاملاً كما يأتي به العواد .

... « وقد خطر في بال الاستاذ وديع صبرا - وذلك منذ ١٥ سنة - ان من الممكن ايجاد طريقة تقيد بها الموسيقى الشرقية بارباعها واثمانها وتطبيقها عملياً على آلة مثل البيانو . ولما عرض فكره هذا في استانبول سنة ١٩٠٨ قال له احدهم : لو كان هذا العمل ممكناً لسبقك اليه الغربيون .

« لقد وصفوا الشرقي بقلة الثبات . على ان وديع صبرا يخفي وراء سكوته

ارادة تفتت الصخر ولا تنقّت . فهو منذ خمس عشرة سنة يعمل لايجاد الطريقة التي حلم بها عندما كان تلميذاً في دار الموسيقى في باريس الى ان تكلل جهاده بالفوز وتوصل الى اكتشاف ما قضى الحياة بالتفتيش عنه .

... « لقد اشتغل الاستاذ وديع صبرا نهارا وليلا حتى بلغ ما يصبو اليه . وفي هذه الايام (١٩٢٣) يسمع من يسكن في جواره انغاماً رقيقة كأنغام العود تحترق الاثير وتحمل الى قلب من تتبع وديعاً في جهاده عاطفة جميلة هي الشعور معه بسمو الفوز بعد الجهاد . وهذه الانغام تخرج من طاولة خشبية بسط عليها الموسيقي اختراعه الذي سيعرضه بعد اسابيع قليلة على البيروتين فيعزف امامهم الالحان الشرقية على البيانو المعروف فيرون النقص فيه ثم يعزف نفس الالحان على الآلة التي اخترعها فيظهر الفرق جلياً واضحاً . »

ذلك هو الفتح الذي حققه وديع صبرا في عالم الموسيقى ، وهو فتح عظيم جعل اسمه يسري من هوة الجحود الظالم المظلم هنا في مجاري الشهرة المشعة التي حملته الى عواصم الدنيا ، بحيث لا تدخل معهداً موسيقياً في باريس الا وتسأل عن وديع صبرا اذا ما عرفوك لبنانياً ، ولا تدخل مثل هذه المعاهد في لندره او انقره او موسكو حتى يبادروك بالسؤال عن وديع صبرا .

اما اختراعه فبقي على « طاولة خشبية بسطه عليها الموسيقي » وما تزال الآلة التي انفق في سبيل اكمالها كل ما كان يجنيه ، ولم يكن ليحني سوى معاش شهري ضئيل كانت تعطيه اياه الدولة يوم تكرمت وعينته مديراً المعهد الموسيقي الذي انشأته ، ومات دون ان ينهي هذه الآلة التي كانت تحتاج الى نفقات ليس باستطاعة الفرد ان ينفقها ولا سيما متى كان موظفاً ذا راتب يكاد لا يكفي لتأمين حياته وحياة زوجته التي بذلت الكثير من الجهود والتضحيات في سبيل تمكينه من تحقيق اختراعه . وهكذا لم يتسن للبنان ان يفاخر بالدعوة الى مهرجان موسيقي عالمي او ان يوحي به لاحدى الدول الكبرى فيأتي ويعلن اختراعه هذا على نطاق عالمي ...

اما مصير هذه الالة فما عساه يكون ؟ الجواب عند الله ، وربما عند الاجيال المقبلة . .

... يتبقى من كتاب « النسفات » اشياء تدخل في باب التجاهاتها ربما المحت اليها فيما بعد .

على ان ما رأيناه منه من جمال في تصوير المشاهد وفن في اخراج المنشور الايقاعي فيه ، وتدفق للعاطفة الانسانية العميقة ، وارادة صميمية لتقويم المعوج واصلاح السيء ، لما فيها من الخرافات واخطاء ، ان كل ما استعرضناه في هذه الصفحات التي مرت بجعلني ارى ان خير خير ختام لهذا الفصل هي الرسائل التي بعث بها جبران خليل جبران ومي زياده لسلمي بعد ان قرأوها

على اني سأورد على كل حال ، قبل نقل الرسائل المذكورة ، مقطعا من مقال كيبه مخائيل نعيمة في جريدة « البائع » بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٤ ، فأخذ اخيرا فكرة شاملة مختصرة واضحة عن « النسفات » قال مهداً لحديثه بالمقطع التالي من الكتاب .

« لقد بدأنا نشعر بحاجة الى الامور الجديدة . اصبحنا نغل الابحاث النسائية الضاربة دائماً وابدأ على انعام الخيال ، ووصف الطبيعة ، وواجبات المرأة التي سمعناها الوفا من المرات ، فكدنا نكره من اجلها الخيال والطبيعة حتى والمرأة .

« لست ادري ما الذي تعنيه صاحبة « النسفات » بالامور « الجديدة » غير اني اعلم حق العلم انها لم تكره ولا تكره ، ولن تكره الخيال الذي افعم روحها برنات « اجراس العيد » فانطقها بهذا الخطاب العذب :

« سيجي ايها الزواقيس الابدية ...

« ان هذا الخيال لخيال ناطق . مبصر . شاعر . مجنح . اما الخيال الذي تكرهه الكاتبة فهو ذاك القزم الضرب . الاخرس . الاطرش . المفكك . اللاصق ابدا بالتواب . والمتمتم دائماً بما لا يفهمه هو نفسه ولا يفهمه بشر او ملاك او جن . مثل هذا القزم يطوف في مرابع الاداب السورية باسم « الخيال » وهو ليس خيال حيال الخيال » .

... » كذلك اذا نفرت سلمى صائغ من البحث في المرأة وواجبات المرأة ،
فهي انما تنفر من اولئك الباحثين والباحثات الذين يخاطبونك بلهجة الواقفين على
كل اسرار السماء والارض . والموهومين والمتوهمين ان في يدهم دواء لكل ادواء
البشرية . اما دواؤهم فليس اكثر من نقنقتهم الابدية : « علموا المرأة هذيو المرأة .
المرأة ام الامة . التي تهز السرير بيمينها تهز العالم بيسارها » وما اشبه .

» لكن « صاحبة « النسيمات » تتكلم عن المرأة وتتكلم كثيراً وليس في
كلامها ما يملأ القارىء او يتبرم منه الذوق . لانها تترفع عن مثل تلك الترهات
والتوافه ، وعندما تخاطبك عن « الامومة » تنزع قلبها من صدرها وتضعه امامك
في كفيها كتلة حية . جزلة . راقعة . ثم منكمشة . متوجعة . متفجعة . ثم هادئة
خاشعة ساكتة :

» يا حلاوتيتك عندما دببت . وعندما شببت ...

» آه ما امرهم عندما يموتون . آه لنظرات الحزن في عيونهم ..

» حقاً انها لنسمة منعشة - نسمة هذه الامومة وان تكن نسمة حياة وموت .
ولو خيوت بينها وبين كل ما في الكتاب من اجاث « جدية » لما اخترت الاها .
» لعل ما تقصده الكاتبة بالامور « الجدية » هو البحث في الشؤون الاقتصادية
والساسية والعمرانية . وفي كتابها طائفة من مثل هذه المقالات . منها واحدة
في « حياتنا الاقتصادية » تتناول بعض امور اولية في حياة سورية الاقتصادية
ولكنها ليست على شيء من التعمق والتفصيل والتحليل لان سلمى صائغ شاعرة
وليست استاذ علوم اقتصادية . مع ذلك هبت على مقالاتها حماسة وطنية وفكرة
ليوة جعلتاني اخجل عن اعضاء مجلس لبنان النيابي المحترم اذا لم اعثر الى اليوم في
كل مناقشاتهم حتى على نصف ما عثرت عليه في مقالة صاحبة « النسيمات » من الحمية
الوطنية والاهتمام بحالة البلاد الاقتصادية »

بمثل هذا القول كنت احببت ان اختم استعراضى لمقالات سلمى في « النسيمات »
ولشد ما سررت ساعة عثرت على هذا المقال لميخائيل نعيمة وقد رأيت تعبيراً مختصراً
لكل ما تركته من ملاحظات بين مقاطع مقالات سلمى .

وهناك وثائق ثمينة ما اكثر ما كانت تعتز بها سلمى وتفاخر ببعضها . صدرت
صدرت بعضها هذا الكتاب مقدمة وتويجا

وقبل ان انتهي من هذا الفصل ، وقد تحدثت فيه عن ادبها ، ارى ، وفاء
لواقع وللحقيقة ، ان اشير ولو اشارة خاطفة الى ما انتجته في بدء عهدا بالكتابة
وما لم يضمه كتاباها : لا سيما ما ذكر فيه على غلافهما اعلانا وتويا :

فمحاضرتها « ابناء الفقر » التي ناظرث بها امين الغريب في محاضراته (ابناء الغنى)
بدييات من حيث تحديد الغنى وتحديد الثروة .

اما مفاهيمها من حيث مكان المنتج واليد المنتجة من المستثمر ، فتقف في ذهنها وان
لم تكن واضحة مركزة على ضوء المعطيات العلمية كقولها مثلا :

يكس المتمول امواله في خزائنه عليها تنبت له خبزا يوم يخطر ببال الخباز ان
لا يقف امام النار ، وليخبى اسنمه طي فؤاده عليها تقيه شر نوبة عصبية يوم
يضرب المعدن عن العمل ...

فكونها ادركت ان العنصر المهم في عملية الانتاج هو اليد العاملة ، هو الساعد
المنتج فذلك دليل وعي مدرك .

اما تصورها الكارثة التي يمكن ان تحل باصحاب الاسهم يوم يضرب المعدن
عن العمل نوبة عصبية يتدار كونها او لا يتدار كونها ، فقول فيه الكثير من
السذاجة ، اذ الامر بالنسبة الى اولئك المساهمين اشد خطوره وابعاد اذى من نوبة
عصبية تتناهم .

ومقالها في مجلة « الحسنة » « المسحوق الافضل » مجموعة بدييات تتميز بسذاجة
الفتوة التي كثيراً ما تعتقد بان الحواطر التي تراود ذهنها لم تخطر ببال احد .
ومحاضرتها « الارواح النائمة » هي انعكاس لما ترى وتحس ، وهكذا فانها
بصورة لا شعورية تعطينا فكرة عن احوال بلادنا يوم بدأت تكتب .

ومن هنا يمكننا ان نستنتج من « الارواح النائمة » ان ابرز ما كانت تعانيه بلادنا
يومذاك هو التعصب الطائفي ودجل كتابها والعاملين في شؤونها السياسية .
والاراء التي ترسلها سلمى حول المفاهيم الفلسفية لبعض نواحي الحياة في هذه

لمحاضرة فيها الكثير من البهات والغيبيات ، كقولها :

« الغاية من الوجود ان لا يعيش الانسان لنفسه فقط ، بل عليه ان يسعى جده نحو الكمال الذي هو ارتقاء العقل والقلب والروح في آن واحد »

حسناً ان لا يعيش الانسان لنفسه ، ولكن ليس بالسعي للارتقاء نحو الكمال يكون قد عاش لسواه ، مع ما في السعي للارتقاء نحو الكمال ، من ارتباط مع دفع الانسان لان لا يعيش لنفسه فقط ... اما الانسان الذي لا يعيش لنفسه وحده ، عملياً ، فهو ذاك الذي لا يظل في جو لا مبالاة بامور مجتمعة وبالمشاكل المطروحة امام هذا المجتمع .

تلك لمحات خاطفة عن آثار لسامى في بدء عهد ما بالكتابة لم ترد في كتابها « النساء » .

اما كتابها الثاني « صور وذكريات » مع ما فيه من حلاوة الاسلوب الذي تميز فيه ادب سامى ، فهو مجموعة من حوادث عاشتها الكاتبة او شاهدها ، فاستطيع ان اختم هذا الفصل دون الاضرار الى استعراض ما ورد فيه ، لاسيما واني قد اضطر الى الاستشهاد باشيء منه في صدد تحدثي عن انجازاتها .

اتجاهاتها ظروف

زورق بلا شراع ، يهيم في غمار الحياة على هوى تياراتها ... تقذفه متى تشاء
وحيث تشاء ... فاني لهذا الزورق ان يخطط اتجاهها يسير عليه ؟

انها الفتاة المتحررة في الاسر ، والزوجة اشريفة في البيت ، والام الواجبة
يضيئها مركب الخوف من فقدان وحيدتها ومؤنسة وحشتها ... وانها الموظفة
المحتاجة لراتب شهري يعينها على تأمين عيشها وعيش ابنتها ... فهل كان لها ان
تقرر نهجاً لحياتها يرتضيه ضميرها وخلقها فتسير عليه ؟

السؤال خطير ... خطير كل الخطورة ... وليست سلمى التي يطرح هذا
السؤال بالنسبة اليها الا واحدة من كثيرات وكثيرين ممن يخرجون من صفوف
الناس فيلجئون ميادين الشؤون العامة السياسية والفكرية والعقائدية ... وحولهم
يطرح السؤال ذاته . وهنا موضع الخطورة في السؤال .

للحياة متوجباتها ، وللأسرة حقوقها . ومن مطامح الانسان العادية المشروعة
ان يعيش هادئاً مستقراً . فهل يعذر اولئك الذين يضعفون في اتجاهاتهم
وينكفئون اذا ما تعارضت وتضاربت آراؤهم العقائدية والاجتماعية والسياسية
والعيش الهادئ المستقر ؟

قد يتبادر للذهن ان الجواب يعذرهم . لا انهم لا يقدرّون . ان ثمن نخاذلهم
مهما كانت الاسباب والعوامل ، تدفعه اوطان وامم بأسرها احيانا اذ تضل بهم
وبارتداداتهم غقول ، وتحيب أمان ، وتتيه اجيال في ثقات اتجهت ووجهت ثم
بروت وغررت ...

لذا وجب على من يلتدون نفوسهم لمثل هذه الشؤون الرسالية ان يتبينوا
اولا ، مع استكمال وعيهم واستيعابهم وایمانهم ، طاقتهم على البذل والعطاء
باستمرار ، وقدرتهم على الصبر والمصابرة بتضحيات اخفها العيش الهادي .
المستقر ...

وعندي ، بل عند جميع من عانوا ضروب الاتجاهات الفكرية المعتقدية
الاجتماعية العامة ، بات من الواضح الصراح ان على الذين لا يجدون في ذواتهم
الطاقة الصراعية الكفاحية المستمرة مع الايمان المدرك ، ان لا يقدموا ويتقدموا
اذ الطريق شاقة ومديدة والصعاب المحاجة عنيفة شديدة .

ان مراكز التوجيه والقيادة في الامم ليست كما يتصورها الخاطر الساذج
للهولة الاولى مناصب وجاهة وارتياح واطمئنان . انها للرسل ، وللرسل وحدهم ،
تكبدهم اذ تدعوهم كل ما في وسعهم من مواهب وكفاءات وحيوية وامكانيات ،
وتستنزف ذوب قلوبهم وطاقة عقولهم وكل ما ملكت ايماهم قبل ان يتوسطوا
سفوح ذرواتها .

يقدرني المواطن ان انا وقفت ملياً واستوقفت طويلاً في هذا الموضوع فهو
بالنسبة لبلادي وامي اليوم ومنذ آن بعيد موضوع الساعة الخطير .
كثيرون هم الذين انبروا وينبرون موجّهين معلمين ، قادة رأي وحملة رسالات
ومتزعمي شباب . ولا اخال احداً من ابناء جيلي مثلاً الا ويذكر اولئك الذين
مروا خيال ابصارنا وبصائرنا عمالقة اتجاه وجبارة مخططات ، فمالبثوا ، لدى محك
التجارب وظروف العيش واغراءات المراحل ومؤثرات الداخل والخارج ، ان
مسخوا اقزاماً وانكفأوا صعايلك .

ويذكر أبناء جبلي ولا شك أيضاً كم خيبة مريرة صفعنا بمن شتمنا بهم وجوه قادة
وبتعاليمهم قداسة رسالة ... حتى باتوا فيما بعد للشعب درساً قاسياً ولسواهم قدوة سيئة
وبات العادي من المواطنين يقلب شفتيه هزءاً واستخفافاً وأساساً وقنوطاً كلما قيل له:
هذا فلان مخلص وفي أمين يعمل لمصلحة الأمة !

إذا كان الدرس قاسياً يا أبناء بلادي، وكانت الخيبة مريرة يا بني قومي، فلتكن
لنا من الدرس عظات ومن الخيبة عبرة. لقد تعلمنا ولقد اعتبرنا ...

عودة واحدة الى عقيدة واحدة في حقبة واحدة من عصرنا هذا، تثبت لنا ما
نقول .. وتعرض لنا على شاشة العصر عشرات وعشرات ممن كانوا بالأمس معتنقي هذه
العقيدة متجندين لها، فارتدوا عنها وانقلبوا عليها، منتقلين بيسر وسهولة الى غيرها
ومنافحين من أجل سواها .. فضلاً عن المثات والمثات ممن تعبوا وكلوا ووجلوا وملوا
وتلاشوا وتخلوا، وعادوا ينشدون العيش المنيء والاستقرار المريء .. وفضلاً عن
الالوف والالوف ممن كانوا يصفقون لتلك العقيدة ويستهجون، وهم في كل آن لغيرها
يصفقون ويستهجون !

ما لي وللا مثال .. انها عديدة !

وما لي وللتسميات .. انهم كثير !

حسبي انني اعرفهم، وان الجميع يدلون عليهم .

إذا كان، من سوء طالع هذه البلاد، قد كتب عليها في مراحل فوضى الاتجاهات
والتيارات ان تبلى بما ابتليت به من اخطبوط المعتقدات يرسله الاستعمار اصابع تلثف
وتخنق فئات هذا الشعب بلاقات المبادئ - إذا كان ذلك في امسنا الطفل المتخبط،
فقد آن لنا ان نضع حداً للفوضى والتخبط وتجارهما اقطاعمي الفكر المغررين
المصلحين. ولا يوضع الحد الا الشعب المدرك. ولقد ادرك شعبنا او بدأ يدرك .

انا لا ادعو الى العنف في الرأي والمكابرة في الاجتهاد اذ ادعو الى
الثبات على مبدأ . فانا من القائلين والمؤمنين بفضيلة الرجوع عن الخطأ وبصواب
التوقف لدى القلق . الا اني لن اجيز لنفسي اختلاط المفاهيم وفوضى التعابير، اذ

لكل قول مدلوله ولكل كلمة مسؤوليتها .

يعذر الذين لم يتسن لهم تفهم المدلول من اللفظ العلمي فلا يحاسبون على سذاجة مفاهيمهم ولا يتحملون تبعات ما يقولون . اما الذين تسنى لهم من ينابيع الثقافات فيض ومن استيعاب العقائد خطوط ، وشمول النظرة آفاق - ان هؤلاء لا يعذرون خاصة وانهم يابون الا ان يسميهم الناس « اقطابا » والا ان « يخلدهم » التواريخ قادة بل رسلا .

اعود فاقول ان الذين لا يجدون في نفوسهم الطاقة والمقدرة ، مع الايمان : استريحوا واريحوا . اذا كنتم لا تستطيعون مواجهة كل ظروفكم وجربها من قرونها الى حيث تشاؤون انتم ، فانها لكم بالمرصاد تجابهكم وتجركم الى حيث تشاء صغارا صاغرين !

ساق اليراع الى خوض هذه الظاهرة امر رابع هالتي لدن طالعي في دراستي لعهد سلمي - عصرها ومجتمعها وتياراتها .

انه عصر مخضرم ، اذا جاز التعبير ، بين عهد الاستعمار التركي وبين عهد الانتداب الفرنسي .. مرحلة من تاريخنا الحديث اختلطت فيها نداءات التحرر والاستقلال بانفعالات العنصريات والطائفيات وسياسات الدول ومحاولات الاستفتاء . مرحلة عاشتها الامة في جو عبقت فيه رائحة انفاس الاستشهاد على اعداء المشانق ، ودماء الفداء في جيش التطوع لنصرة الاحلاف ، وتنت فيه ضمائ استجلت المساومة باسم الوطن ، واسترخصت الحيانة البيع والشراء في سوق النخاسة ... مرحلة تجاذبت شعبنا فيها حبال المشارق والمغرب من عنقه ، لا يدري الى ايها يتجه ، وكلها تنادي وتستهي .

ومجتمع في هذا يعيش ولا يحيا .. طوائفه امم ، ومدنه اوطنان ، وبيوتاته زعامات ...

هنالك كانت سلمي .

هنالك نشأت ودرجت وسارت .. وتعلمت وتخرجت وكتبت وخطبت

ووجهت !

لولا سلامة طويتها وطهارة قلبها وبراءة اتجاهها ، ولولا خيرة اصيلة مباركة
في اعماق ذاتها ، لولا مناعة صامدة في (قماش) شخصها لظلت وضلت كسواها ممن
حملوا اقلاما واعتلوا منابر وانبروا موجهين في هاتيك الظروف .
بيد ان ذلك كله لم يجنبها الشطط ، فلم تسلم من فوضى التيارات ، ولم تنج
من اختلاطات المفاهيم . وما الذنب ذنبها ، هكذا علموها . هكذا سمعتم ، هكذا
قرأتم ، وهكذا انشروا لها .

ما كان لاحد ان ينتظر من سامي ابتداع فلسفة اجتماعية ، ولا وضع رسالة
عقائدية ولا تخطيط سياسة تاريخية ولا قيادة حزب ولا تزعم امة .
هي ذاتها لم تفكر بذلك ، ولم تتدب نفسها لهذا .

انها اديبة . اديبة حس يشعر وعين ترى واذن تسمع . ولئن ثابت اراء سامي
ومفاهيمها بعض الشوائب ، فهي بقايا الرواسب التي ورثتها وتلقنتها فارسيتها كما هي
على علانها دون ترو ولا تمحيص .. فهي كما سمعت وقرأت معاصريها الخطباء والكتاب
في الاندية والصحف يقولون ويكتبون .. وهي كما شاءت المناسبات
والظروف .. وهي كما كانت تود دائماً ان تكون ، للجميع .
هي عربية .

الم يكن عهد شبابها عهد انتفاضة مواطنيها وقردهم ، باسم العصية العربية ، على
العثمانيه والاسترايك ؟

وهي سورية .

الم يكن جميع الادباء ، كتابا وخطباء وشعراء يقولون بسوريتهم ويعلنونها في
الوطن وفي المهاجر ؟
وهي لبنانية .

الم يتخلج فيها نداء من لبنان شاء منفصلا في حدود ؟
وهي اجتماعية .

الم يكن مجتمعها بحاجة الى قلبها ولسانها وقلها ومشاركتها جمعيات البر والخير ؟

وهي انسانية .

الم تفعل الام البشر في الحرب وبعدها فعلها في فؤادها وعينها ؟

وهي فردية .

الم يجز عليها الزمن ويشتملها الفراغ ويتخل عنها الكثيرون فتغدو وحيدة

شريدة ؟

وهي مؤمنة بالقيم .

الم تملقها في الكتب دروسا وتقرأها في الصحف مقالات وتسمعها على المنابر مواظ ؟

وهي كافرة بالمثل .

الم تقل لي حشرة الموت في حلقتها : تفحصي بي جيداً يا املي واتعطي .. وثقي ان

ليس من احد في هذه الدنيا يستحق ان نبذل من اجله الشباب والعافية : لا الاصدقاء

ولا الاحباب ، حتى ولا الاولاد .

هي كافرة مؤمنة ، فردية ، انسانية ، اجتماعية ، لبنانية ، سورية ، عربية .

الم يكن لبنان وما يزال لهذا كله ؟

في عهدنا ، وفي عهدنا !

للعروة منبرا ، وللسورية ساحلا ، وللبنانية معقلا ، وللاجتماعية ندوة ، وللانسانية

منارا ، وللفردية متجرا ، وللایمان هيكللا وللکفر حانة ؟

وسلمى ، كما نحن ، من لبنان ، في لبنان . فماذا عساها تكون غير بيتهم

وحيطها ؟ بل ماذا عسى يكون ادبها المرأة الذي حاول ، بعض الاحايين ان

يكون منارة ؟

ليس لاحد ممن عاصروا شباب سلمى ان يدعي العصمة ولا الحصانة . فكلهم كانوا

كمثلها ، لا يستوقفهم تفكير ولا يلزمهم معتقد ، فلقد كانت ازمتههم بايدي الظروف

لا لوم عليهم ولا تثريب ، فما كان لهم بالمدارس الفكرية عهدولا بتعميق جذور فلسفة

العقائد علم .. لقد كان جالهم من عباد الوطنية ، وعشاق الاستقلال وطلاب السيادة

وفدائني الكرامة وابطال الاستشهاد ، هكذا عاطفيا عفويا اعتباريا - والغاية
تبرر الوسيلة ...

الغاية تبرر الوسيلة !

هذا هو الخطأ الذي تعلمناه والذي آلت اليه عواقبه الوخيمة .
العقيدة هي الوسيلة وهي الغاية . منها تنبثق الوسائل والمخططات في كل منحنى ،
ومنها واليها تنبثق وتعود السياسات . متى ادر كننا ذلك وضحت الوسيلة وسلمت ، وبانت
الغاية وتحققت .

هنا يطيب لي الامناع الى ما ساورني وخامرني من دعوة المعنيين في شؤون الفكر
والرأي والتوجيه الى اعمال العقل واستخدام العلم لتبيان الواقع في اللفظة والتعبير
والتحديد والتوضيح .

هنا ادعو كل من يجرد في عقله العلمي او علمه العقلي استعدادا للقول بعد تفكير
وللجهر بعد اقتناع ، الى التعري والتجرد والوقوف وجها لوجه حيال المعرفة ، لوضع
الكلمة في مكانها والتعبير في مدلوله والتحديد في نطاقه والتوضيح في اشراقه .
امة لبنانية . امة سورية . امة عربية .

اسيوية . شرقية . انسانية . قومية ، شيوعية ، اشتراكية .

ما هي الامة ؟ ما هو الوطن ؟ ما مقوماتها ؟ وما واقعه ؟

كل ذلك ومئات الاسئلة وراء ذلك من علوم التاريخ والاجتماع والسلالات
والعصبيات واللغات والاديان والمذاهب والانظمة الاقتصادية والفلسفية وما اليها ،
كل ذلك ومئات الاسئلة قبل ذلك وبعد ذلك وحول ذلك حامت وتحوم دون ما
تمييز ولا مفهوم .

حيال هذا كله ما سلمى ؟

ايام مرت على قلبها ولسانها الفاظ الشرقي والعربي والسوري واللبناني متفرقة او
متواترة ، لم تمر بتعمد ولا تكلف .. هكذا سمعتها او قرأتها ، وهكذا قالتها وكتبتها
حسبها شاءت ظروف القول والكتابة .

مرة واحدة وقفت سلمى اذ استوقفها صلاح .

صلاح لبكي صهرها زوج وحيدتها . اديب له مكانته المرموقة ، ومحام له تفوقه المرتقب . ورجل له طموحه المشرّب . آمن بسعاده معلماً . وآمن به سعادته ركناً . وسعاده رجل من لبنان شاء ان يكون معلم جيل وواضع تعاليم وزعيم حركة الحزب السوري القومي الاجتماعي .

لست ادري ما العوامل التي حدثت بصلاح الى الاقتناع فالانتساب المنضوي والمنظم ... انما الذي ادريه ان سلمى كذلك آمنت واعتنقت ومارست بعوامل ليس صلاح صهرها زوج وحيدتها بعيداً عنها ...

ولست ادري ما العوامل التي حدثت من ثم بصلاح الى ان يرتد فيغدو لبنانياً بالقومية وبالحدود ... انما الذي ادريه ايضا ان سلمى ارتدت لبنانية بعوامل ليس صلاح بعيداً عنها ...

اتجاهاتها ظروف ...

هذا في مدى التعبير عن وطنيات سلمى وقومياتها ، لا اظن فيه عقيدة بالمعنى المدروس ولا علماً بالمعنى المتعمق ، انما هو قول ولفظ قلما استهدفت معهما وجهات نظر . ويبدو ان ذلك لم يكن يعنيهما او يهمهما من قريب .

اما المسائل الاجتماعية ، فلقد كانت اسلمى كما هي حتى اليوم لكثيرين خيرات ومبرات وصدقات واحسانا واسعافاً ومؤاساة ...

فهي التي كانت تدعو دوماً للعدالة الاجتماعية وتبشر بالعدالة الاجتماعية ، كانت ترى في جمعيات البر والاحسان تحقيقاً لتلك العدالة ، دون ان تدرك ان مهمات هذه الجمعيات ، على كونها خيرة ومفيدة ، لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ودون ان تنبه الى ان مرض النظام الاقتصادي والاجتماعي الفاسد لا تستأصله الصدقة . ان في الصدقة اذلالاً يكرس الفقر ويبرر استمراره .

ولم يخطر على بال سلمى مطلقاً ان الاعمال الاجتماعية جزء من كل حياتي لا يتجزأ ، وان الاعمال الاجتماعية لا تقتصر على الاسعاف والمساعدة ، بل هي فرع من دورة حياة توجب نظاماً اقتصادياً عادلاً يحقق العدالة الاجتماعية حقاً لا صدقة وفعلاً لا قولاً .

بيد ان براءة النظرة لدى سلمى الى المجتمع بشؤونه وشجونته ، لا تنفي مآثرها في خدمة المعوزين والمحرومين والبؤساء من ابناءه . فهي التي نظمت مأوى الايتام في غزير واستنفرت من اجله الجود واستندت الاكف ... وهي التي اولت سجن النساء مع ارليت ريشاني اهتماماً ملحاحاً حمل السلطات على جعله اقرب الى الاصلاحية الخلقية منه الى حبس زربية ... وهي التي كانت لولب جمعية النهضة النسائية ومحركها ، فكان منها اول نداء لمقاطعة البضاعة الاجنبية باقامة معارض الانتاج الوطني في بيروت ودمشق وبالدعوة الى تشجيعه وتفضيله ... وهي التي رأت ان من ضرورات استكمال السيادة الوطنية تعزيز لغة البلاد ومناهضة شركات الاستثمار ، فما اطمأنت الا لدن اقرت المفوضية الفرنسية لغتنا العربية رسمية في المعاهد والمناهج والبرامج ، وما استطاعت الا ان ترسل الصرخة عنيفة في وجه شركة الكهرباء الصفيق باسم الشعب يوم اضربه المشهود ضد غلاء اسعار الترام ... ساهمت سلمى في كل ذلك قولاً وعملًا مع لفيف من كرام سيدات البلد في الاتحاد النسائي لا يذكرن الا وتعود الى الحاطر كبراهن الرائدة جوليا طعمه دمشقية . اني وان كنت اود ان احيل القارئ الى مؤلفات سلمى ليرى اتجاهاتها وليدة ظروفها ، لا يسعني الا ان احمل اليه بعضاً من تلك الاتجاهات تاركة للقارئ تحليلها بالنسبة الى الظروف .

قالت « اعطوا يعظكم الله » في ندائها لمشروع الميتم في غزير :
« لنكن ما نشاء ايها الناس ، لننتم الى جمهوراني او الى فرعون او الى التتر ، ولكن لنكن بشرا .

« ويا امهات هذا الوطن الطيبات الحنونات ، يوجد كثيرون من الاطفال ينامون في هذا الشتاء تحت الحيام . هؤلاء الصغار يقبلون بشكر السترة القديمة والثوب القديم والقليل القليل من الحب والحنان .

« غدا عيد الغريبيين ، وانا من الطائفة الشرقية ، وحقي ان اكون غريبة عن العيد . ولكن اجراس التهليل هذه توقظ الشعور في نفسي ، ونفسي منذ وجدت تبكي على الجائعين والمترولين والمحرومين . »

وقبل ان ابدأ باستعراض بعض من مقاطع مقالاتها في « صور وذكريات » كتابها الثاني ، الذي اصدرته في سان باولو عام ١٩٤٦ ، الكتاب الذي كان للشاعر شقيق معلوف اليد الكبرى في ايجاد الامكانيات لطبعه ، اود ان اعود الى مقال في كتابها « النسمات » لم اذكره في صدد التحدث عن ادبها ، وقد قلت اني ساتركه لفصل اتجاهاتها لما فيه من الدلائل على ان الظروف هي التي كانت تقرر اتجاهات سلمى .

اما المقال فهو « مستقبل الآثار في سوريا » و « حكاية الآثار » . وكونها اختارت هذا الموضوع للبحث فيه يدل على انها كانت تدبر بفكرة لم تعد تتبناها فيما بعد ، كما انه يدل على اختلاط المفاهيم الذي اشرت اليه آنفا ، تقول :

« نساfer الى اوروبا ولا نترك زاوية لا تنتفع منا (يقبض رسم الدخول) ، فننتقل من لندن الى باريس ، الى برلين ، الى جنيف ، ونتألف مع البنايات والمتاحف والمسارح والممثلين والممثلات اكثر من تألفنا مع بيوتنا وعائلاتنا .

« اما بلادنا فنكاد لا نعرف عنها شيئاً ولا نكلف نفوسنا المعرفة . واذا جازف احد الكتاب الفرنج بوقته وماله وكتب لنا شيئاً عن بلادنا فاننا لا ننعب لتصفح ما كتب . جال غوستاف له بون الفيلسوف الفرنسي المعروف في كل مدن الشرق مفتشاً عن آثار المدينة العربية فلم يترك رسماً الا نشره ، وقد صور هذه الرسوم بقلمه فجاء كتابه معجزة من المعجزات . وزار هذا الفيلسوف احد كتاب سوريا فنقل عنه هذه العبارة : « لقد قضيت قسماً من عمري في كتابة مدينة العرب ، ومن الغريب اني لم أر عربياً واحداً كتب الي سطوراً او شكرني بكلمة) ثم تقول :

« تحت هذا العنوان نشر الدكتور كونتنو ، في مجلة « مريكور ده فرانس » مقالا عن الآثار في سوريا واهميتها المستقبلية . والدكتور المذكور هو رئيس البعثة الاركيولوجية في سوريا . » وتترج

« امام غنى سوريا المادي يوجد غنى ادبي عرفنا بالنزوع اليه والتفتيش عنه ،

وهذا النزوع هو سبب نشر علومنا في الشرق، لهذا يجب علينا ان نصرف اهتمامنا الى مستقبل سوريا العلمي . وفي هذا المقال الذي اكتبه بعد سفرة طويلة فتشت في اثنائها عن الاثار القديمة ، اجرب ان الفت انظار السوريين الى اهمية الميراث الذي وضعته الاجيال بين ايديهم ، فيتمتعون بكنوزه ويتمتعون بها المدنية ...

« ان مركز سوريا بين الامبراطوريات الثلاث الكبيرة : الاشورية والمصرية والفارسية ، هو سبب جعلها مدة اجيال ساحة حرب تتلاطم فيها مطامع جيوانها . فقبل المسيح بالفي سنة امتدت عليها سطوة بابل ، وبعد خمسة اجيال حملت نير المصريين الذين جعلوها درعا يتقون بها هجمات الشعوب النازلة عليهم من الشمال .

... » وجاء الفتح العربي فغطى مدة اجيال كل ما كان قبله وتبعه الصليبيون فبنوا قلاعهم وقصورهم وكنائسهم في كل سوريا .

« هل يوجد تحت السماء بلاد لها ماض كماضي البلاد السورية ، تعاقبت عليها توارىخ الانسانية جمعاء ؟ لا يوجد بقعة من بقاع الارض شهدت ما شهدته هذه البلاد ، فكأنها بكاملها منجم لا يفرغ يحوي الشهادات الحية عن الماضي الصامت .

« ان البلاد غنية بالاثار ، ولكن جميع هذه الاثار مبتورة ناقصة ... والسبب في وجودها على هذه الحالة ، هو ان الفتوحات التي حدثت في سوريا ، كانت سلسلة معارك دموية ، قضى فيها الغالب على كل ما للمغلوب ، من صامت وناطق ... وبتعداد اديان الفاتحين كثر التخریب والتجديد .

هذا ما رأيت ان اوردته وزعنا وترجمة من مقالها «مستقبل الاثار» حتى لا اترك ناحية من اتجاهاتها ذات مغزى الا واكون قد وقفت عندها خدمة للحقيقة كما سبق لي وقلت . ولعل كلمات سورية والعرب والشرق استوقفت الانتباه بتواترها ... ولنقرأها هنا لتنتفض غاضبة ثائرة ، امام تحمة أناس وحرمان اخرين ، في هذا المقطع من مقالها « فوق تلال حبرون ، في صور وذكريات »

« تسرع السيارة في الطريق التي خلت من المارة ، الا من بعض الركبان ،

نمر بها ... صور للشقاء اللابس اجسادا ، المتنقل فوق هذه الارض ، المليئة ياناس ،
بالماء والحُزْن والزيت ... »

وتتابع :

« جلست في عصر ذلك النهار الى ذوي ، اصغي الى حديث ضابط عربي قادم
من منطقة غزه ويبر سبع ، وقد جلس يروي كيف ان العربي وقد نهكه جذب
الفصول الاخيرة واصبح يقضي نهاره احيانا ، وغداؤه حفنة من الخبز المبلول او
التمر الجاف . وقد رأى الضابط الاولاد ينبشون او كاد النمل ، ويلتهمون ما
فيها من حبيبات الشعير والقمح ... »

ثم تتابع واصفة مشهد ضابط انكليزي يروض كلابه كل مساء لتنام براحة ،
فيركضها ساعة ، وعندما تتعب يركبها في السيارة ويعود بها الى المقر السعيد -
فتمقول :

« انخفضت عيني لحظة ، واستعدت صورة الركبان البائسة ، التي مررت بها على
طريق القدس والحليل ، وحانت مني التفاتة الى دار الحكومة القائمة امامي ، وفوقها
العلم الانكليزي النظيف الانيق ، يلاعبه النسيم ويدغدغه كما كان يدغدغ وجه
الضابط الاسقر الجميل ، الذي مر منذ هنيهة مع كلابه المدللة في سيارته المماعة ...
« ليحيي علم الديموقراطية وليحيي العدل الذي تسلمه هؤلاء الاوروبيون من
رب السماوات تسلم اليد .

وانقرأها في مقطع آخر من المقال ذاته :

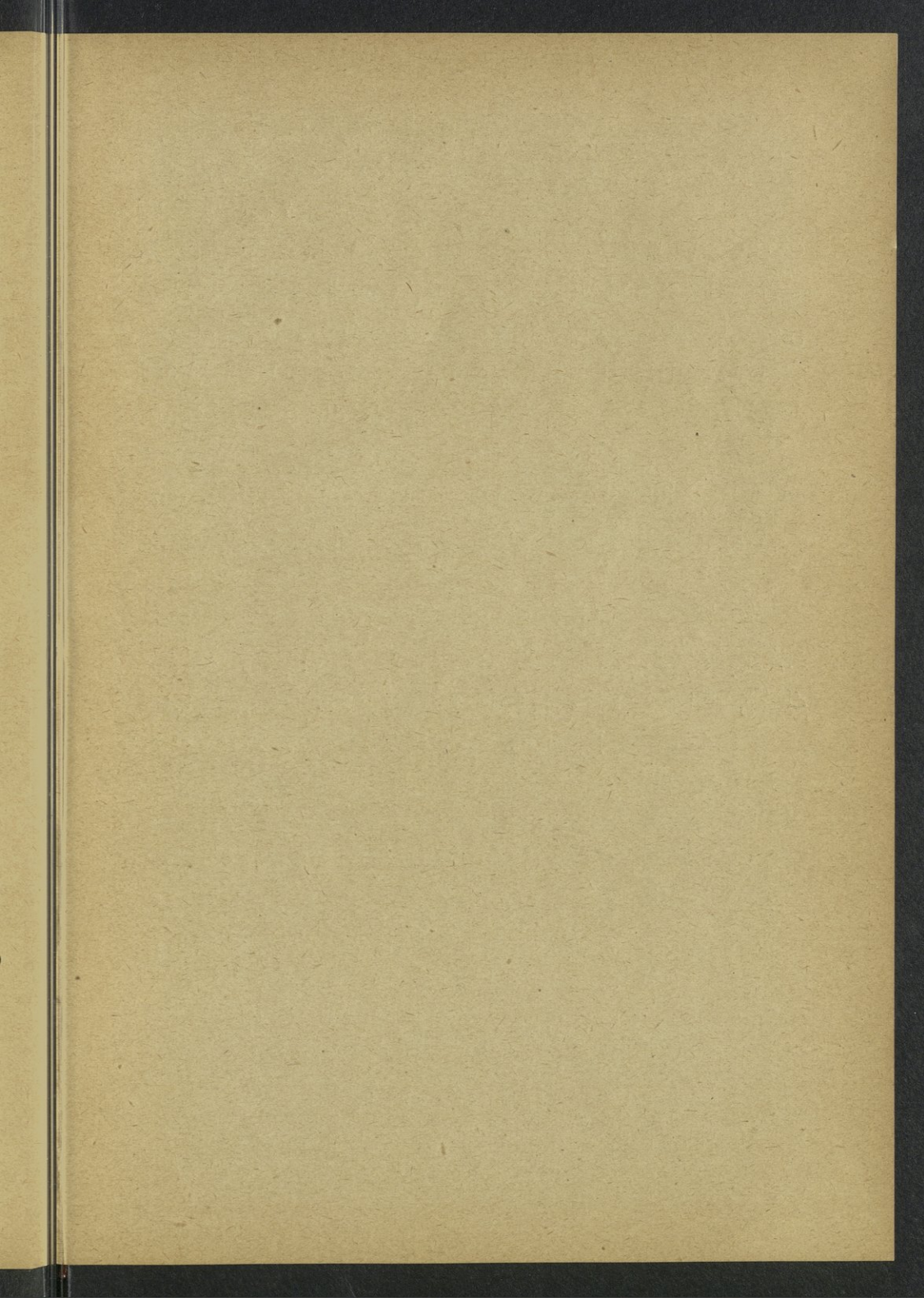
« يا قارئ في ارض البرازيل الهائلة البعيدة ببركات الله عن منفجر اطماع
البشرين تجار الديناميت والغاز الخناق في اوروبا سلبية الحضارة والمدنية .

« يا قارئاً اعلم انه يثق بصديقي وباماني وتجردي للحق اكافح في سبيله واعيش
من اجله . لا تصدق هذا الراديو الاثيم الوقح عندما يقول ان ثورة سوريا الجنوبية
قد تلاشت لنضوب الذهب الالماني وان الامهات الثواكل في فلسطين لم تلد رجالا
ابل ديدانا وخنافس تداس بالاحذية !!! اقول لك ان رجال سوريا الجنوبية كتبوا

بدمائهم اجمل واطهر صفحة عرفها تاريخ القوميات .
ترى ألم يتوقف القارئ معي عند عبارة « سوريا الجنوبية » بعد قراءته عبارة
« الضابط العربي » ؟

ترى اهي الظروف ايضا فرضت على سلمى حتى في البرازيل عام ١٩٤٦ ان
تراعي الاتجاهين العربي والسوري في حديثها عن ثورة فلسطين ؟
عندما يذكر القارئ ان القول عن عروبة فلسطين او سوريتهما لا يس
« اللبنانية » فهو بالتالي لا يغضب « اللبنانيين » وخاصة في المهجر المتحرر نوعا ...
وعندما يذكر ان في ذلك المغترب « عربيين » و « سوريين » يدرك بالبداهة
كيف تأثرت سلمى بدينك الاتجاهين فراعتهما وذكرتهم كليهما ...
ومن يدري ، لعل تعاليم سعاد - وكان سعاد عامذاك هناك - عادت الى
خاطر سلمى بالظرف ايضا فلم تتنكر لها تمام التنكر ، واتباعها « رفاقاؤها »
كثير هنالك !

ان اتجاهاتها كانت ظروفها .
ولانصفها فاقول : بل كانت حيرة ، وتيهها وقلقا ... ان عقائديا او اجتماعيا ...
عفوا يا سلمى ، فلم تكوني وحدك في الحيرة والتيه والقلق ... اننا نحن كمثلك
مازلنا في ذلك ... في داء فوضى المفاهيم - داء العصر !



تركتها وسام

سلكت مجرى تيار الحياة بهدي قلبك وحسك وروحك ...
نهضت وانهضت ، تناقشين وتحاورين وتستنتجين وتقررين ...
صارعت وكافحت صابرة مصابرة ...
شئت ان تكوني ، فكنت التعبير عن الانسان ، يطلق نفسه على سجلتها بلا
مخطط ولا قياد ، ويوثق نفسه اذ يحنبها او يجربها ، عاقلا بلا قيود ...
لقد كنت من تلقائك ما شئت يا سلمى !
فكان كل ما يصدر عنك انبثاقاً من ذاتك ، لا تعتمد فيه ولا التواء .
آمنت بالانسان وبالكون الذي بنى ...
آمنت بقيم من شأنها وحدها ان تعبر عن نفحة من اله خالق ، ما تصوره
الانسان الاحبا ورحمة وخيرا وعطاء ...
كذا كنت من تلقائك يوم انطلقت في شبابك المتفجر عن ينابيع من الخير
والحبة والرفق ... فحضت غمار الحياة ورائدك هذا الايمان الصافي ...
سرت اسواطاً في السياق ، وانت تصارعين الخيبات ، وتكابرين امام راهن
ما قبلته يوما نفسك لانه لا يليق بكرامة هذا المخلوق البشري ، سيد الكائنات ،
بما يحس ويعي ويعقل ...
بذلت روحك وقلبك وشبابك وعافيتك زوجة واما وصديقة ومواطنة ، فما

لقيت الا الحيات والالام والوحشة والجحود ...
قست عليك الحياة وتمادت في قسوتها ، فاستنفدت طاقتك على التحمل والمكابرة ،
فكفرت يا مؤمنة !

كفرت اجل !
وكيف لا تكفرين انت التي لم تجد ثوابا سوى الوحشة والحرمان والغصص ؟
كيف لا نفهم كفرك وننجني امام وجيعة نفسك ، انت يا من انبرت رائدة
بقلبها الكبير ، لتصلح ما اعوج والتوى بالانسان ، فردا ومجتعا ، عن هـ برر
وجوده على هذه البسيطة ، عن مراميه الخيرة السامية ؟

كيف لا تفجعين في خيبتك المتتابة وانت التي قلت :
« ونفسي منذ وجدت ، تسير بين الناس ، وتتفرس في عيونهم ، عليها تجرد
رسماً او شبه رسم للطابع الاسمى . »
وما هو الطابع الاسمى يا ترى عندك ؟
حسي ان استمع اليك في هذا النداء فاكتفي :
« لنكن ما نشاء ايها الناس . لننتم الى حموراي ، او الى فرعون ، او الى
التتو ... ولكن لنكن بشرا ... »
لنكن بشرا ...

هذه هي الدعوة الانسانية الصافية الصادقة ، التي انتدبت نفسك اليها فكنت
التعبير عن بيئة عرفها التاريخ منذ صباحه ، معلمة هادية ، شهدت لها الدنيا
بالرسالات السمحة وقد اطلعت للعالم انسانا قال لبني الانسان :
لنكن بشرا !

فهل كان الناس في مجتمعنا ، حقاً لك يا سلمى بشرا ؟
اي ثواب هذا الذي نلته من مجتمعك وامتك ؟
أحلوك المكانة التي استحققت يا رائدة ؟
أسققوا على عينك العليلة ، فانترعوا من بين يديك وريقات تلميذات صغيرات

سرت عليها اقلامهن الغبية ، تخط طلائعهم كنت تذيبين حشامتك لفك الغازها ،
فامنوا لك العيش الكريم بما يليق بمكانتك ؟

هل انتفضت النساء بمنظمتن التي بذلت من قلبك وروحك ونفسك من اجل
انهاضها ، يغضبن لكرامتك ، يوم امتهنت هذه الكرامة المؤسسة المدرسية التي
اعطيت اطيب سني حياتك ، لتجعلي لها معهدا للبنات لاثقاً بقتيات ارقى الامر ؟
ماذا جنيت من جهدك وجهادك ؟

أجنيت ما يوفر لك العيش الكريم ؟
أعطيت من شجرة غرستها اوتعهدتها ثمرة ؟
بلى !

اعطيت وساما !

أعطيته يوم اعتليت منبر الندوة اللبنانية محاضرة ، ولست ادري اي فخر
تحسست به في تلك الامسية : اهو فخرك بوسام علق على صدرك الكبير ، ام هو
فخرك باعتلاء منبر هيكل المعرفة وتكريس المكائات الفكرية في هذا البلد ، كما
كان يحلو لك ان تسمي هذه الندوة ؟

لما الذي ادريه هو انك رددت هذا الوسام بيدك الى مانحيه ، ساعة رأيتهم
يخنفون الحريات ويحطمون الاقلام !

غير ان منطق هذا البلد ابي الا ان ينتهي بأسازك الى حيث وقوفه عند
الشكليات ، وتبرير توقفه عن تحقيق واجباته باللجوء الى هذه الشكليات ، فتكرم
عليك بوسام منحه وانت مسجدة على سرير الموت !

وهبت ، بهذا المنطق ايضاً ، المنظمات والمؤسسات والرسيميون ، فاذاعوا ماثر
اربعين سنة من عمرك في ساعة سموها : حفلة تأبينية !
وقد قيل في هذه الحفلة :

هو الحفل يلتقي لتكريم سلمى صائغ الراحلة !
هو الجمع يلتئم لارسال شعور الاسى على سلمى صائغ المتوفاة !

هو عقد الصحب واهل الفكر يسارعون لانتزاع طيف سلمى صائغ من عالم
النسيان الاسود ، عالم الموت الاخر الاشد فناء ، فيعيدون الى الذاكرة مزايا
سلمى ، ومواهب سلمى ، وصفات سلمى وفضل سلمى على بلدها وجيلها !

هم المعجبون بمفكرة قل ان يجود الزمان بمثلها ، والمقدرون مواهبها ، يتوافدون
للتعبير عن هذا التقدير وذلك الاعجاب بحفلة احياء ذكرها !

هي معالم التكريم والشعور بالاسى والاحساس بعرفات الجليل ترسل اليوم
بسبغها لمناسبة وفاتها !

اجل كل هذا لسلمى الراحلة !

اما سلمى الحية ، سلمى الجريش في ابائها ، المستوحشة انغرية في ساعات «تلعب
بها امواج الحياة القاهرة ، فتفتش عن يد لطيفة تقرأها على جبينها الملتهب لتبوح
بسر يغالبها وتغالبه ، لتبوح بانها اكثر شقاء مما نظن » سلمى هذه التي ترى « في
هذا البوح نزوة من قلب مكولوم يجدر الاستغفار عنها لان الشكوى لغير الله
ذل » اما سلمى هذه فنحن عليها حتى ببعض اهتمامنا .

اقول ذلك لاني عايشة سلمى في ساعات كانت تنطلق فيها نفسها من قيود
كبت فرضته عليها ، فتبوح وتبوح بجراح « وبما عشت بالثنايا فيها والحنايا » تبوح
بشعور وحدتها وبشكوكها بقيم يدين بها المفكرون !

سلمى صائغ الرائدة المصارعة ، والادبية الموهوبة ، والمفكرة الواعية حقاً
وصدقاً ، لا ممة ولا تكروماً ، ان سلمى هذه كانت تستحق في حياتها تقديراً ضن
به عليها !

اني احببت ان نتبين من حياة سلمى وماتها عبوة يجدر بنا ان نقف عندها
لنستخلص منها درساً ، وان يك قاسياً ، في تقديرنا للدب والادباء ، او قل في
هذا الجذب بارسال شعور التقدير نحوهم في حياتهم ، ينقلب غيثاً في ماتهم !
افيكون وجودهم ذنباً لا نعتقره لهم الا في ماتهم ؟
لقد اسىء الى سلمى صائغ في حياتها !

على ان التاريخ ، وهو صاحب الكلمة التي لا ترد في اقرار الفضل وتعيين المسكنات
سينصف سلمى صائغ ، ويجلبها منه مكاناً لاثقاً بمواهبها وبالرسالة الكريمة التي ادمها .
... لقد تعالت آهة موجهة من بلادي ، آهة امرأة حملت في حناياها قلب انسان
مواطن ، وفي نفسها التماع عقل خير صادق ... آهة امرأة عملت جادة كامكانية غنية
بالطاقة الفاعلة ، في مجتمع احبته فوهيته شبابها ويناعها وعافيتها ...

آهة فيها من غنى القيم ثروات !

تعالت وتعالى فوق الرماد !

تتعالى ويصعدها بعد في بلادي كثيرون !

لا ، لن يسجل التاريخ ان تركتها وسام ... فقط وسام !

انها آهة من بلادي ترسلها امتي بلسان سلمى فتقول :

« اعطوني وطناً والا اموت ! »

دليل العناوين

<u>الصفحة</u>	<u>العنوان</u>
٢١	ميلادها عيد
٢٥	طفولتها مشاهد
٣٣	شبابها انطلاق
٤١	زواجها أمنية
٥١	امومتها فراغ
٦٣	صدقاتها ظمأ
٩٧	ادبها مرآة
١١١	اتجاهاتها ظروف
١٢٥	تركبتها وسام

الغلاف للفنان
نبیه جاوودي

الطبعة الاولى
في كانون الاول ١٩٥٤

مطبعة عون وحداد
بيروت - الجيزة

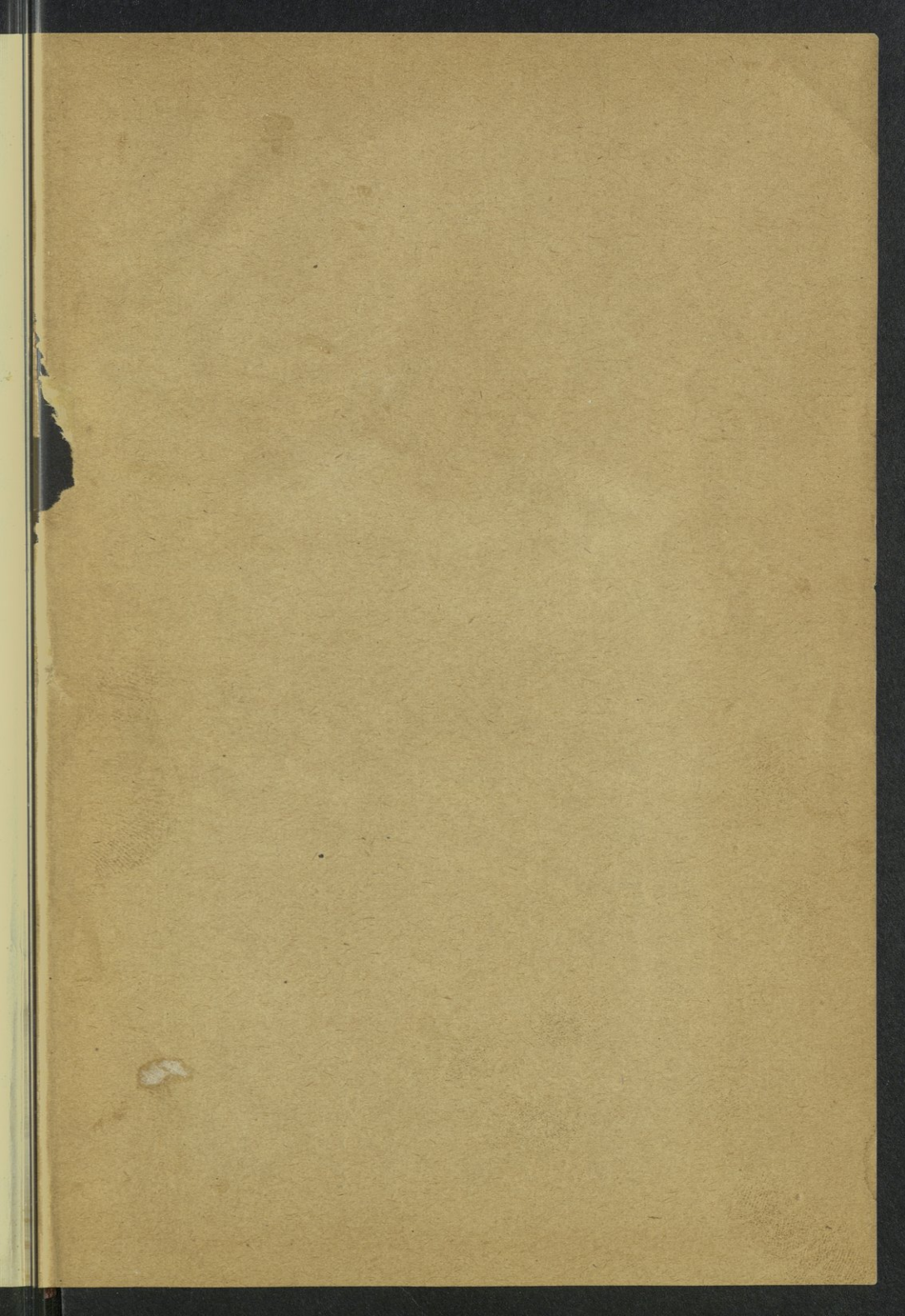
اعتذار

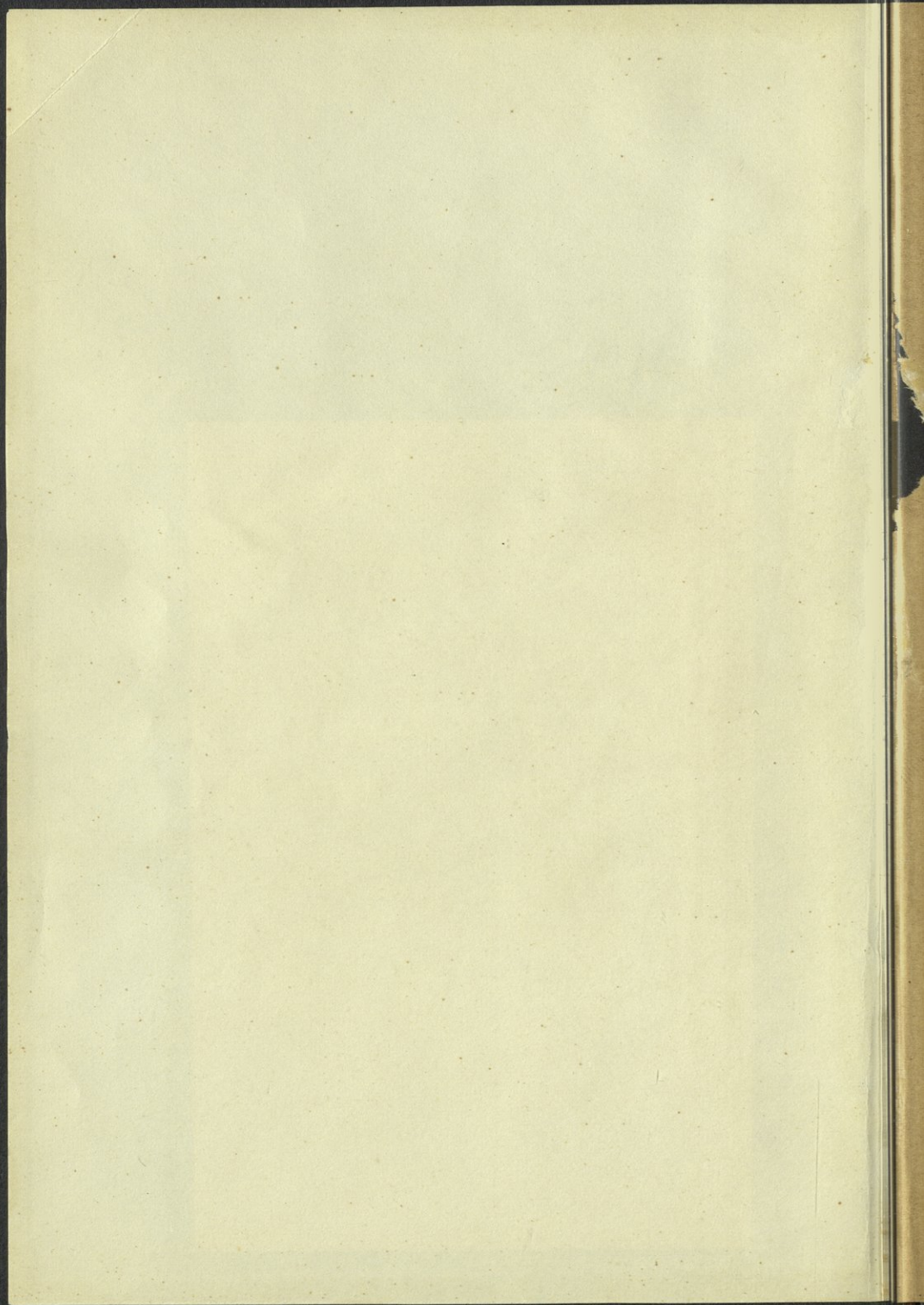
وقعت اخطاء مطبعية في القليل من الصفحات
لا تخفى على القارىء . معذرة الى الطبعة
الثانية باخراج طباعي افضل .

المؤلفة

تصويب

صفحة	سطر	خطاً	صواب
٩	١٠	عرفنا	عرفتها
٩	١٠	الحياة	حياة
٩	١٩	اقف	افقت
٩	١	خشبة	خشبتة
٥٢	٥	بأعباء	بالأعباء
٥٥	٢١	مي	امي
٥٧	٢١	جله	اجله
٦٠	٦	كتبتة	كبتة
٩٣	٩	يجرده	يجردها
٩٤	٢	حدثنا	حققتنا
١٠٧	٩	الرسائل	السطور
١٠٧	١٠	قرأوها	قرأها
١٠٧	١١	قبل نقل	بعد تلك
١٠٧	١١	الرسائل	السطور
١١٠	١	البهات	المبهيات
١١٠	٧	وحدما	وحده
١١١	١٣	وينكفرون	ويكفثون
١١٢	١	يقدررون	يعذرون
١١٢	١٨	يقدرني	يعذرني







DATE DUE

~~JAFET LIB.~~
~~25 JAN 1978~~
~~JAFET LIB.~~

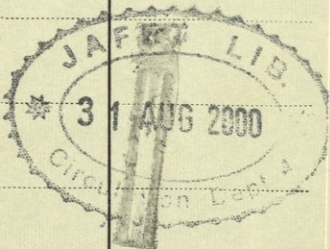
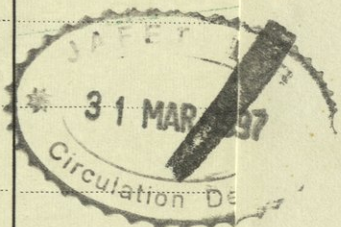
~~1 FEB 1978~~

~~JAFET LIB.~~
~~20 MAY 1983~~



~~9 MAY 1978~~

~~JAFET LIB.~~
~~1980~~



ابراهيم ،املى (فارس)

سامى صانغ

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039192

American University of Beirut



5274
S274Y: A

892.7g
Sq132YiA
C.1